خالد محمّد خالد

معجزة الإسلام:

عمر بن عبد العزيز





دار المعارف



معجزة الإسلام:

عمر بن عبد العزيز

خالد محمد خالد

معجزة الإسلام:

عمر بن عبد العزيز

الطبعة الخامسة



دار المعارف

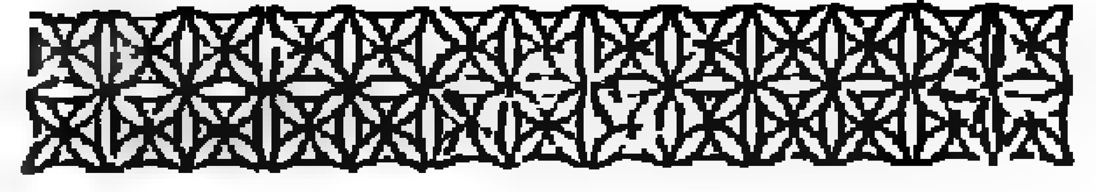
الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مَراجع تاريخية

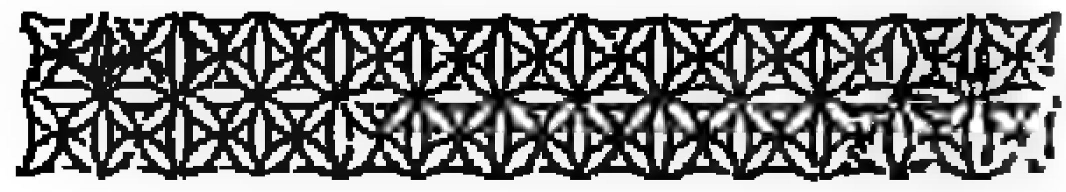
(١) سيرة «عمر بن عبد العزيز» — ابن عبد الحكم
(٢) حِلية الأوليـــاء — أبو نعيم الأصبهانى
(٣) تاريخ الطبرى ج ٦ — ابن جرير الطبرى
(٤) البداية والنهاية ج ٩ — ابن كثير
(٥) الأخبار الطِّوال — أبو حنيفة الدّينورى
(٦) الأيام الأخيرة للدولة الأموية — عمر أبو النصر
(٧) الأغانى — أبو الفرج الأصفهانى
(٨) عيون الأخبار — ابن قُتَيْبة
(٩) ديوان جرير

الإهداء

يا مَنْ صنَعك الإسلام على عَيْنِه
فكنتَ معجزته الباهرة التى
لا يَنْصَلُ - على الدهر - بَهاؤُها
إليك أهدى - فى خشوع وحياء - هذه الصفحات . .
فهل تتقبلُها ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟



فى هذا الكتاب



صفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

معذرةٌ إلى أمير المؤمنين . . من كاتب يُجاوز قدره بالحديث عنه ، والتأريخ له — كما جاوز قدره من قبل فى محاولات مُماثلة . .

ومعذرة إلى « أمير المؤمنين » . . من كاتب لم يستطع أن يكبح جماح رغبته هذه ، وهو يعلم علم اليقين قدْر مَقْتِ أمير المؤمنين للحديث عنه وإطراء شمائله ومزاياه . . !

وليكن شفيعى أن — أمير المؤمنين — لم يكن مِلك نفسه . . إنما هو ابن الإسلام البار ، ومِلْكيته الثمينة . . ! ! !

ومن ثمَّ ، فالكتابة عنه ليست حقًّا له . بل هى حق للإسلام الذى كان — ابن عبدالعزيز — ثمرته ومعجزته . .

أفيأذن إذن أن أؤدى للإسلام حقًّا أُطيقه ، وإن قصَّرتُ من قبل ، ومن بعد ، فى حُقوق كِثار . . ؟ !

* * *

ألا إن نبأه لعجيب . . وإن تصوره — مجرد تصوره — لأمر مُمعن في الصعوبة يارجال . . ! !

ومع ذلك فحتم علينا ، لا أن نتصور فحسب ، بل نجاوز التصور إلى التصديق ، مادمنا نحترم التاريخ ونثق به . . . .

فبأوثق أسباب النقل والرواية والتأريخ ، نُقلت إلينا هذه الآيات المعجزات التي سنراها ، والحقائق المتحرَّاة التي سنشهدها ونطالعها .

أجل — في صدق تاريخي عظيم ، يرفض كل تساؤل وشك ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر . . والحاكم القديس . . ! !

وإن الصعوبة التي تواجهني الآن . لتتمثل في : ماذا آخذ وماذا أدع من ذلك الحشد الهائل من الحقائق التي تحكي لنا جلال قداسته . . وروعة بساطته . . وسمو عدله . . ونبل روحه . . وإعجاز مسلكه . . ! !

وإذا كانت الحكمة العربية تقول : من أخصب تخيَّر . . .
فإني أجدها الآن : من أخصب تَحيَّر . . ! !

* * *

ولقد كنت أحسب أن كتاباتي في « السِّير الإسلامية » . ستقف عندما أخرجت فيها من مؤلفات : عن خلفاء الرسول الأربعة . . ثم عن تلك الثُّلَّة المباركة من الرجال حول الرسول . . . ثم عن الإمام الشهيد « الحسين » وأبناء الرسول في كربَلاء . .

كنت أحسب أنني سأقف عند هذه النماذج العالية لعصر الوحي الذي يبهرني دائماً جماله وجلاله . .

بَيْدَ أَنِّى مالبثت ، حتى أبصرت هناك فى الذُّرَى الشاهقة مكاناً شاغراً لرجل ، هو وإن لم يَنْتَمِ لعصر الوحى تاريخيًّا – إذ تفصله عنه عشرات الأعوام – فإنه بقداسة روحه ، وجلال نُسُكه ، ينتمى إليه أروع ، وأجمع ، وأوثق مايكون الانتماء . .

ذلكم هو معجزة الإسلام – عمر بن عبد العزيز . . ! !

* * *

إنه لاينتمى لعصر الوحى فحسب . . بل إنه الرجل الذى حاول نقل عصر الوحى بمُثله وفضائله إلى دنيا مائجة هائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة بالتحلل والترف . ثم نجح فى محاولته نجاحاً يبهر الألباب . . ! !

فهل نَدهش ونذهل ، لأنه بمفرده حاول تحقيق هذا المستحيل . . . ؟؟ ! !

أم ندهش ونذهل ، لأنه بمفرده قد حقق المستحيل فعلاً . . وجعل من الملك العضوض الذى شاده الأمويون عَبر ستين عاماً ، خِلافة أوَّابة ، عادلة ، بارَّة ، تمثل كل فضائل وشمائل عصر النبوة والوحى . . ؟ !

ومتى . . ؟ !

ليس فى عشرين عاماً . . ولا فى عشرة أعوام . . بل فى عامين . وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! !

* * *

على أنه ليس فى هذا التوفيق العظيم ، والقدرة الخارقة ، ما يجذب وحده انبهارنا . . فهناك تلك الميزة الفريدة التى جعلت من « ابن

عبد العزيز» ومن سيرته أكثر الحقائق الإنسانية إثارة للعجب ، والبهْر ، والإجلال ، والتى جعلت منه أسطورة ، أصدق من الحقيقة . . وحقيقة ، أعجب من الأساطير . . ! !

فهو لم يشغل الناس والتاريخ بكثرة عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسمو حكمه وخلافته ، فحسب . . ! !

بل إنه – قبل ذلك كله – شغل الناس والتاريخ وبهَرهما بذلك الانقلاب الروحى المذهل وبالظروف التى أحدثته وواكبَتْه . .

فقد يكشف منصب الحكم والخلافة فى شاغله عن عبقرية فى التنظيم . والإدارة . والسياسة . .

أما أن يكون هذا المنصب بكل إغرائه وفتونه وزهوه وسلطانه سبباً مباشراً لتفجير عبقرية الروح والقداسة ، فذلك مايصعب تصوره ، فضلاً عن تفسيره . . ! !

وهذا هو الذى حدث بالنسبة لـ« عمر بن عبدالعزيز» . .

فعلى الرغم من أنه كان قبل استخلافه ، وطوال سِنِى عمره طاهراً ، صالحاً ، فاضلاً . فإن ذلك كله لا يبدو شيئاً مذكوراً أمام حياته ومسلكه بعد القفزة المجيدة والمباغتة التى حدث خلالها أعظم وأندر انقلاب روحى شهدناه فى كل بنى الإنسان . . ! !

ويزيد الأمر عجباً ، أن هذا الانقلاب الباهر ، تمَّ بتكامُله المطلق فى بضع دقائق من الزمان . . وأن هذا الانقلاب الروحى المعجز ، لم يجىء ثمرة طارئ يُغرى بالزهد ، ويدفع للعزلة والإخبات . . بل هو على النقيض من ذلك ، ثمرة مفاجأة تُفجِّر فى النفس مهما يكنْ ورعها وتقاها . كلَّ رغبات الحياة المتأنقة . . ومباهجها المتألقة . . ! !

أجل . . فى الدقائق ، وإن شئتم فى اللحظات التى هُتف فيها باسمه خليفة وحاكماً لأعظم امبراطوريات عصره وعالَمه . تمَّ هذا الانقلاب الذى يتحدَّى كل وصف وكل تصوير . . . ! !

والرجل الذى كان قبل دقائق استخلافه . يُضمِّخ ثيابه بأغلى العطور ، ويسكن أعلى القصور ، ويلبس أبهى الحلل ، ويأكل أطيب الطعام ، ويركب الصافناتِ الجِياد ، ويبلغ دخله السنوى أربعين ألف دينار . .

هذا الرجل ذاتُه ، يصير بعد دقائق . . لا أيام ولا ساعات ، إنساناً آخر ، عِطره ، عَرَقُه . . وجياده ، قدماه . . وملبسه من أخشن الثياب . . ومطعمه من أجشب الطعام . . ودخله لاشىء . . ؛

فقد حمل كل ثروته إلى بيت المال . . وقصوره الفارهة لا قصور . . ؛ فقد تحول عنها إلى دار متواضعة من الطين . .

وعرشُه — ياَلجلال عرشه — حصير قديم يجلس عليه فوق التراب . . . ! ! !

ويزيد الأمر تعقيداً ، كما يزيده روعة وجلالاً أن بطل هذا الانقلاب الروحى المثير ، لم يكن من أوساط الناس . . بل هو ربيب الملك ، والقصور ، والأمجاد ، والنعيم . .

كذلك لم يكن ساعة هذه الوثبة الروحية الهائلة شيخاً هرماً ، فى سن الستين أو السبعين . بل كان فى رائعة شبابه ورجولته . فى سن الخامسة والثلاثين . . . ! ! !

* * *

تحت أى تأثير لا يُقاوَم سحره ، ولا يُردّ قدره ، وقع هذا الانقلاب داخل هذه الظروف . . ؟ ؟

لاشيء أمامنا سوى « مسئولية الحكم » نقلته فى لحظات إلى قديس لانظير له بين جميع القديسين . . ! !

ذلك أنه لم يَصِر « قديس صومعـة » بل قديس صولجان وسلطان . . ودولة من أعظم دول الأرض والزمان . .

وذلك – لَعمرُ الحق – مايكاد يذهب بالألباب . . ! !

لقد صار منذ استُخلِف يَتلَوّى تحت وقع مسئولياته ، ويصرخ من أعماقه : [من ينقذنى يوم القيامة من حق الفقير الجائع . . والمريض الضائع . . والمظلوم المقهور . . واليتيم . . والأرملة . . والأسير . .] . . ؟ ؟ ! !

* * *

إيه ، يابن عبد العزيز ! ! تقدّم ، ولا تَخف . . . .

تقدم . . لترى الدنيا كيف أنجب الإسلام . . وكيف ربَّى « محمد » وعَلّم . . ! !

تقدم ياحفيد الخلافة والملك ، ورضيع المباهج والنعيم . . ! !

تقدم . . ياريَّان الشباب ، ويايناعم الإهاب ، ويافوَّاح العطور والعبير . . ! !

تقدم « يا أمير المؤمنين » وأرِنا اليوم مُرَقَّعاتِك ، وأسمالَك . . ! !

أرِنا القميص الذى كنت تغسله ، ثم تنتظره فى ركن دارك حتى يجفّ ؛ لأنك لا تملك سواه . . ! !

أَرِنا وجهك الشاحب ، وجسدك الناحل من فرط ماتبذل من جهد ، ومن أثر الخبز المتبَّل بالملح ، والمبلَّل بالزيت . . ! !

أرنا « الحصـير » الذى اتخذت منه عرشاً يا خليفـة المسلمين ، ويا أمير المؤمنين . . ! !

أرنا دارك التى شدَّت إليها الرحالَ من بلاد بعيدة ، سيدةٌ جاءت تطلب المزيد من عطائها فلم تلبث حين رأتها أن قالت فى مرارة :

« أتُرانى جئت أعمر بيتى ، من هذا البيت الخرِب . . ؟ !

ألا حيَّا الله « فاطمة » زوجتك ، فكم كانت صادقة حين أجابتها :

[إنما خرب هذا البيت ، عمارةَ بيوت أمثالك] . . ! !

تقدم . . يا أمير المؤمنين ! !

فما نعرف يقيناً أشبه بالأسطورة . . ولا أسطورة أصدق من اليقين ، منك أنت ، ومن نبئك العظيم . . ! !

* * *

ومعذرة – مرة أخرى – فقد نسيتُ أنك تكره الإطراء والثناء ولكم كنت أود أن أعِدَك ألا أعود . .

ولكنى غير قادر . . والدنيا المبهورة بعظمتك تقف هى الأخرى ، عاجزة وغير قادرة . .

فمن ذا الذى يستطيع الصمت أمام الذى أتيته من مُعجزات . .

مَن . . . ؟ ؟

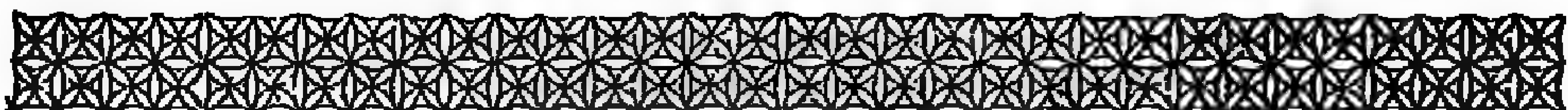
. . ياأمير المؤمنين ؟ ؟ ! !

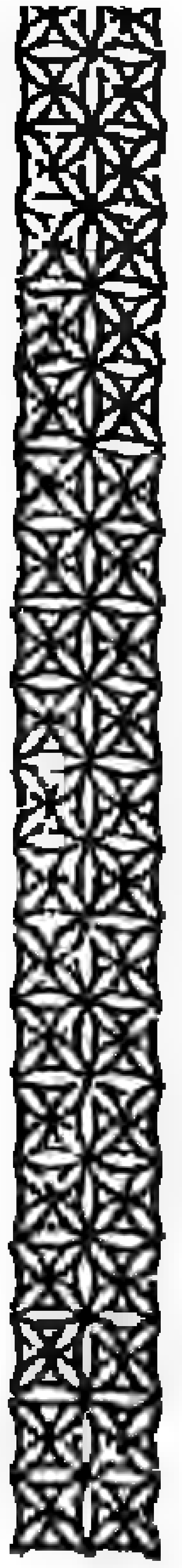
« خالد »

الفصل الأول

الطفولة المُرهِقة

[. . إنك إذن لَسعيد] ! !





كان ذلك فى طفولته الغضّة الناضرة .

وكان أبوه « عبدالعزيز بن مروان » يحكم مصر والياً عليها لأخيه الخليفة الأموى « عبدالملك بن مروان » حيث لبث « عبدالعزيز » فى ولايته هذه عشرين عاماً .

وغادرت « أم عاصم » المدينة المنورة حيث كانت تقيم ، لاحقةً بزوجها « عبد العزيز » فى مصر . مصطحبة معها ولدهما الحبيب « عمر » . . .

وفى « حلوان » التى اكتشف عبدالعزيز جمال مُناخها فاتخذها مُنتجعاً ومُستراحاً ، راح الطفل المتفتح يجرى فى مرابعها ، ويعبّ من هوائها .

وذات يوم ، دخل حظيرة الخيل ، فركضه جواد ، فشَجَّه وأدماه وحمل الطفل الجريح إلى داره ، وما كادت أمه تبصره حتى أخذها الروْع ، وفجعها المشهد .

واستُدعى أبوه ، فجاء على عجَل ، ورأى الدم يغطى وجه ولده ، والشجَّة الفاغرة تنزّ . .

وقبل أن يغشاه الأسى ، طوَّفت بخاطره ذكرى ألقت على محياه تهلُّلا وعلى ثغره ابتساماً . . .

ولما فرغ من تضميد جرح طفله الحبيب ، رَبَّتَ على كتف زوجته والبسمة تزداد على شفتيه اتساعاً وتألقاً ، وقال :

« أبشرى ، يا أم عاصم » !

ثم بسط يمناه يداعب بها رأس ولده ، وعيناه تُحدّقان فى وجهه الشاحب الوديع ، وراح يقول له :

« إن تكن أشَجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد » . . ! !

فماذا كانت الذكرى التى أثارها هذا الحادث ؟

وما شأن النبوءة التى أومأت إليها كلمات عبدالعزيز . . ؟ ؟

* * *

لنعد إلى الوراء كى نشهد النبأ من أوله . . فهناك فى تلك الليلة الشاتية ، حيث المدينة ساكنة ساجية ، قد أوَى الناس فيها إلى دورهم ومضاجعهم يلتمسون الدفء من ذلك الصقيع الراعد ، إلا رجلا واحداً أفزعته مسئولياته – وقد كانت دائماً تفزعه – فنَضا عنه غطاءه ، وخرج إلى طرقات المدينة التى خلت من كل حىّ ، ولم يبق بها سوى كتل الظلام ، وعُواء الريح . .

خرج الرجل وحده يتعسَّس ، فلعلَّ هناك جائعاً ، أو مريضاً ، أو مقهوراً ، أو ابن سبيل . . .

لعل هناك شأناً من شئون الناس قد غاب عنه ، والله سائله عنه ومحاسبه عليه . . فالرجل خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين .

أجل . . إنه هو – عمر بن الخطاب – رضى الله عنه وأرضاه .

وطال تعسّسه وتطوافه حتى أدركه التعب ووخزه الصقيع . فلاذ بجدار دار صغيرة فقيرة ، وجلس يستريح قليلا ليستأنف خطوه فيما بعد إلى المسجد ، فقد أوشك الفجر أن يجىء . .

وإذ هو فى مُتَّكَئِه ، سمع حواراً داخل الدار .

كان الحوار يجرى بين أم وابنتها حول ذلك القَدْر الضَّحْل من اللبن الذى جاد به ضرع شاتِهما فى ذلك الهَزِيع ، وكانت الأم تدعو ابنتها كى تخلط اللبن بالماء ؛ حتى يزداد ويفى ثمنه بحاجات يومهما الوافد . .

سمع أمير المؤمنين حوارهما :

الأم تقول لابنتها :

« يا بنية ، امْذُقِى اللبن بالماء .

والبنت تجيب أمها :

« كيف أَمذُق ، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذْق ؟ ؟ وتعود الأم قائلة :

« إن الناس يمذُقون ، فامذُقى ، فما يدرى أمير المؤمنين بنا إن مذَقْنا ، ولا يرانا . . » .

وتجيبها الفتاة :

« ياأماه ، إن كان أمير المؤمنين لايرانا ، فرَبُّ أمير المؤمنين يرانا ! ! ! »

واغرورقت عينا أمير المؤمنين بدموع الغبطة والفرح ، وسارع إلى المسجد ، فصلى الفجر بأصحابه ، ثم عاد مسرعاً إلى داره ، ودعا ابنه « عاصماً » وأمره أن يأتيه بحقيقة أهل تلك الدار .

وعاد « عاصم » إلى أبيه بمعلومات وافية عن الأم وابنتها ، وقص

أمير المؤمنين على ولده ماسمعه من حوار ، ثم قال له وقد كان مزمعاً على زواج :

« اذهب يابنى فتزوجها ، فما أراها إلا مباركة ولعلها تلد رجلا يسود العرب » ! !

وتزوج – عاصم – تلك الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة وأنجبت له فتاة ، أسموها « ليلى » وكَنَّوْها « أم عاصم » .

ودرجت « أم عاصم » هذه فى شبابها التقى النقى ، حتى تزوجها «عبدالعزيز ابن مروان » فولدت له « عمر بن عبدالعزيز » . .

تلك إذن ذرية بعضها من بعض . . ولقد صدقت نبوءة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الفتاة المباركة .

بيد أن هذا الجزء من النبوءة ، لم يكن هو الذى دار بخَلَد « عبد العزيز ابن مروان » حين قال لطفله الجريح :

« إن تكن أشجَّ بنى أمية ، إنك إذن لسعيد »

فللنبوءة بقية أخرى ، هى التى استجاشت الذكرى فى وعى عبدالعزيز .

ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . رأى ذات ليلة رؤيا نهض من نومه على أثرها يعجب ويقول :

« مَن هذا الأشجُّ من بنى أمية ، ومن وَلد عمر يسمى عمر ، يسير بسيرة عمر . . ويملأ الأرض عدلا » . . ؟ ؟

رأى « عمر » هذه الرؤيا . واستشرف ذلك الغيب قبل أن يولد حفيده « عمر بن عبد العزيز » بقُرابة أربعين عاماً ! !

وانتقل ابن الخطاب رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى ، وظلت نبوءته هذه تُدَوِّى بين أهله وذويه الذين راحوا يتلمسون تلك العلامة فى وجوه أبنائهم .

وحين وُلد لعبد الله بن عمر ابنه « بلال » وأصيب فى طفولته بشجَّة فى وجهه ، حسبوه المبَشَّر الموعود ، لكن الأقدار تخطته حتى جاء اليوم الذى شُجَّ فيه وجه ابن عبد العزيز . فتذكر أبوه النبوءة القديمة ، وقال قولته المفعمة بالرجاء والأمل . .

« إن تكن أشج بنى أمية ، إنك إذن لَسعيد » ! !

* * *

هذه إحدى ظواهر الإرهاص فى طفولة – بطلنا – وليست كل الظواهر .

فلسوف نرى إرهاصات طفولته تُغطى ببشائرها كل مجال ، وتتكامَل بالقدر الذى سيكون عليه تكامُل الدور العظيم لحياة الرجل فى – عمر بن عبدالعزيز – وحياة الخليفة فيه . .

وهذا الإرهاص لا يتمثل فى تلك العلامة الجسمانية التى أحدثتها شجَّة الوجه فحسب . .

بل يتمثل فى ذلك الانتماء المزدوج للنقيضين الكبيرين :

عمر بن الخطاب وسلالته التقية الورعة .

والأمويين ، وسلالتهم المتقحمة المستهترة .

وهنا يجاوز الإرهاص شخص – عمر بن عبدالعزيز – إلى دائرة أوسع ، ومغزًى أبعد . .

فكأنَّ القدَر ، وقد أمهل بنى أمية حين اغتصبوا الخلافة . وأحالوها إلى ملك عَضُوض ، وإلى مزرعة أموية ، قد قرر أن يجيئهم برجل منهم ، يُذيع على الملأ وثائق إدانتهم ، ويرد إلى دين الله حقيقته المضيئة ، وإلى دنيا الناس

عافيتها الغائبة ، وإلى منصب الخلافة كرامته وتُقاه . . ! !

ثم يكون للدنيا بأسرها آية على مايستطيع الإسلام العظيم أن يصنعه حين تتقمَّص رُوحه الغلاّبة المشرقة رجلا من الناس ، فتحيله إلى نور إلهي معجز ؛ حتى حين يجيء هذا الرجل من أصلاب أولئك الذين ملأ أكثرهم الأرض فساداً وبغياً ! !

* * *

على أن هذا النوع من الإرهاص كان يدور خارج شخصية الطفل الموعود . .

هو إرهاص يديره القدر بنفسه ولحسابه ، دون أن يكون للطفل دخل فيه ، أو عِلم به . . .

فلننظر الآن نوعاً آخر من ذلك الإرهاص ، كانت شخصية الطفل مادَّته وأداتَه . . وكان مظهراً لجهده الذاتى فى اكتشاف نفسه ، وبناء شخصية ، حيث نبصر رغبات الطفل ، تشير إلى مستقبل الرجل . . وحيث نلمح فى اتجاهه النفسي والعقلى إبان طفولته من النضج والاستواء والرشد مايُرهص بِغَده ويبشر بمستقبله .

ولقد تحدث هو فيما بعد عن طفولته تلك فقال :

« لقد رأيتُنى بالمدينة ، غلاماً مع الغلمان ثم تاقت نفسى للعلم ، فأصبت منه حاجتى » ! !

ومن هنا تبدأ إطْلالَتُنا الواسعة على الإرهاص الذاتى لهذه الطفولة المباركة .

فلقد رغب الطفل إلى أبيه أن يغادر مصر إلى المدينة ليدرس بها ويتفقَّه .

والمدينة يومئذ منارة للعلم والصلاح ، تمتلىء بالعلماء والفقهاء ، والعبَّاد والصالحين .

كما أنها مجتمع يموج بالنبوغ الإنسانى فى فنون الشعر ، والعزف والغناء .

ويستجيب – عبدالعزيز بن مروان – الذى كان من خيار بنى أمية وبنى مروان ، وأكثرهم قرباً من الهدى والتقى والصلاح . . يستجيب لرغبة ولده ، ويرسله إلى المدينة المنورة ، ويعهد به إلى واحد من كبار معلمى المدينة وفقهائها وصالحيها . . وهو « صالح بن كيسان » .

* * *

إن طفلا كصاحبنا ، نشأ فى قصور المُلك ، والنعيم . . يحمل لقب « سمو الأمير » . . وبين يديه ، بل ملء يديه من مناعم الحياة ومباهج الأيام أكثر مما يشاء . ما كان يُتوقع منه – وفى طفولته على الأقل – إلا أن تحمله أشواق الطفولة ورغباتها إلى دنيا اللهو والمرح والانطلاق .

فما باله ينأى عن ذلك كله ، وينزع بكل فؤاده وهواه إلى آفاق الرجال ، بل حكماء الرجال . . ؟ !

ثم مابال طفولته لا تُرهِص ببعض خصائص اكتماله المقبل فحسب ، بل تُرهص بكل هذه الخصائص على نحو عجيب . . ؟ !

أجل . . إن كل تألُّقات سلوكه الذى سنراه عند ما يصير خليفة للمسلمين ، تبدو بشائرها فى حياة الطفل والغُلام مجتمعة متكاملة .

فخوفه الشديد من الله . .

وإقباله النهم على العبادة والعلم . .

وتقديسه المطلق للحق ، ودحْضُه القوى للباطل . .

وولَعُه بمعالى الأمور . .

كل تلك الخصائص والسجايا التى ستشكل سلوكه وحياته فى أثناء خلافته ، نرى بشائرها كلها فى نشأته الباكرة تُزاول تدريبها الذكى فى توفيق عظيم .

فهو كما رأينا من قبل يرغب إلى أبيه كى يرسله إلى المدينة ليتزود من فقهها وعلمها قائلاً لَه :

« دعنى أذهب إلى المدينة ، فأجلس إلى فقهائها . وأتأدب بآدابهم »

ثم لايكاد ينزل بها حتى يلوذ بالشيوخ والعلماء والفقهاء ، متجنباً أترابه ولِدَاته . .

ويعكف على حفظ القرآن حتى يُتم حفظه فى زمن جدّ قصير ووجيز . .

ويقبل على العربية ، وآدابها ، وشعرها ، فيستوعب من ذلك كله محصولا وفيراً . .

وقد يبدو هذا النبوغ المبكر أمراً مألوفاً إذا هو قيس بالمستويات المتفوقة للطفولة الناجبة الذكية .

لكن هل يبلغ مثل ذلك النبوغ من ضمير طفل مايملؤه خشيةً لله ، وما يجعله يبكى وينتحب من مخافة الله . . ؟؟ !

لقد كان – عمر بن عبد العزيز – ذلك الطفل الورِع البكّاء .

فاجأته أمه ذات يوم ، وهو فى حجرته وحده يبكى وينتحب ، فألقت نفسها عليه تسائله مادهاه ؟ فكان جوابه :

« لا شيء يا أماه ، إنما ذكرت الموت » . . ! ! !

وقد تراودنا الرغبة فى تفسير واقعة كهذه ، بأنها حالة عارضة . ربما أثارها مِزاج نفسى طارئ . . أو لعلَّه كطفل مُرهف الحسّ جزع من صورة الموت الذى سيسلبه مسرَّات هذه الحياة . .

بيد أن للصورة أبعاداً أخرى .

فمعلمه « صالح بن كيسان » فقيه المدينة العظيم ، يعطينا الصورة كاملة وهو يتحدث عن طفولة ابن عبد العزيز فيقول :

« ما خَبَرْتُ أحداً ، الله أعظم فى صدره من هذا الغلام » ! !

وحين يتحدث عالم فى منزلة « ابن كيسان » أنه لم ير أحداً [اللهُ أعظم فى صدره ، من هذا الغلام] ، فإننا نجد أنفسنا أمام نموذج إنسانى نادر المثال . . ! ! !

ذلك أن هذا القدر من الورع وخشية الله وإجلاله . إنما يُواتى الأفذاذ من الصالحين بعد أن يكبروا ويتقدم بهم العمر . . أمّا وهم غلمان صغار فهيهات . . إلا أن يكون واحداً من أولئك الذين يَصْطَنِعهم الله لنفسه ، ويَصْنَعُهم على عينه . . ! !

* * *

وتَبهرنا طفولة « ابن عبد العزيز » بطريقتها فى اختيار القدوة والمثَل الأعلى . .

فقد رأينا الغلام يجنح بكل ثقله الوجدانى والعقلى إلى جانب الشيوخ بما معهم من دين ، وحكمة ، وفقه ، وخُلق .

ثم يذهب فى تمييز مثله الأعلى واختياره وتحديده مذهباً يبهر الألباب .

فالغلام الصغير ، لايستمد مثله الأعلى من بيئته التى تعجّ بالأمراء

والملوك ، ولا من دنياه الحافلة بالمباهج والزخرف . . ولا من الرُّؤَى والأحلام المناسبة لسنه وطفولته .

إنما يرسل بصيرته الذكية إلى الآفاق البعيدة والمجيدة لتعود إليه بمثَله الأعلى ، متمثلاً فى شخصٍ أعظم ، وأعلم ، وأورع ، وأتقى أهل زمانه — ذلكم هو « عبدالله بن عمر بن الخطاب » ! !

و « عبدالله بن عمر » هو عَمُّ والدة عمر بن عبدالعزيز . . فهو منه بمثابة الجَدِّ ، وإن رأينا الغلام يحلو له أن يدعوه بخاله .

لقد راح منذ نزل المدينة يلوذ به ويلازمه ، ويتلقَّى عنه ، ويتأسَّى به . . .

وكان إعجابه به شديداً ، فهو دائم الإشادة بعلمه . وورعه ، وسخائه ونُبل روحه .

ولطالما كان يداعب والدته بهذه الكلمات المصمِّمة .

« تعرفين يا أماه ! ! ؟ ؟ لَأَكُونَنّ مثل خالى ، عبدالله بن عمر » ! !

إنها روح كبيرة . .

أكبر عشرات المرات من جسم صاحبها الغضّ ومن سنه الناشئة . .

إنها روح غلام يتعجل رجولته ، ليس لما فيها من فتوة . . وزَهو . . بل لما فيها من اكتمالٍ لفضائله وازدهار لخصائصه وشمائله . .

* * *

وفى طفولة — ابن عبدالعزيز — نرى احتراماً للنفس ، نادر المثال .

فهو لا يتجنب اللهو المباح لأمثاله وأندداه فحسب . . بل يأخذ نفسه أخذاً وطيداً بما لا يقدر عليه سوى أولى العزم من الرجال ! !

وهو لا يتجنب من الأخطاء ما يُحاسَب عليه الكبار ، ويُغتفر للصغار . .

بل يتجنب منها كل خطأ كبير أو صغير .

فرذيلة كالكذب – مثلا – يواجهها الغلام بمقت شديد ، ورفض أكيد . .

ولسوف نسمعه يتحدث فيما بعد عن نفسه فيقول :

« ما كذَبْت مُذ شددتُ علىَّ إزارى وعلمتُ أن الكذب يضر أهله » ! !

* * *

وفى طفولته الراشدة ، تبهرنا الاستجابة الفريدة التى كان الغلام يتوسل بها لتصحيح ما يتكشف له من خطأ ، وتنمية مايُتاح له من سَداد .

حدث يوماً أن تأخر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين بمسجد الرسول فى المدينة .

وسأله معلمه ومؤدبه « صالح به كيسان » عن سبب تأخره فأجاب الغلام فى صدق : [كانت مُرجِّلتى تمشط شعرى] وقال له أستاذه فى عتاب : [أوَتُقدم تصفيف شعرك على الصلاة] . . ؟

وكان – عبدالعزيز بن مروان – قد أوصى « صالح بن كيسان » أن يكتب إليه دوماً بكل أخبار ولده ، فكتب إليه عن هذه الواقعة ، فجاء أمر عبدالعزيز إلى ولده أن يحلق شعر رأسه جميعه . .! !

وهنا نبصر الغلام وهو يزيل أتصع مظاهر وَسامته وأناقته . . يفعل ذلك وهو ممتلئ النفس غِبطة ورضاً ، ليس فقط لأنه عرف كيف يمتثل ويطيع حيث يجب الامتثال وتلزم الطاعة . . بل لأنه وجد فى ذلك تكفيراً عن خطئه الذى اجترحه حين ترك رغبته فى استكمال أناقته ووجاهته

تؤخره بعض الوقت – لا كُلَّ الوقت – عن موعد الصلاة . . ! ! !

* * *

إن التطلع إلى السَّداد يحدو روح الغلام بشكل فَذّ – سدادِ الشعور وسداد التفكير ، وسداد الإرادة ، وسداد السلوك .

وهو ، على الرغم من كونه مجرد غلام صغير لا ينظر إلى نفسه كأمير ، له الحق فى كثير أو حتى فى قليل من التدلُّل والامتياز .

بل هو ينظر إلى نفسه كإنسان عادى . لروحه وحدها الحق فى الامتياز بما تكتسبه من معرفة ، وفضيلة ، وصواب . .

ونعود فنقول : إن المعجز فى هذا كله ، أن بَطَله ليس إلا مجرد غلام . . غلام فى سِنّ اليَفاع . . ! !

وغُلام وُلد فى أحضان النعيم ، ونشأ فى دنيا حافلة بالترف والإغراء . . ! !

ومن أبهى مظاهر استجابته الرشيدة لتصحيح الخطأ ، واستكمال الرشد ، هذه الواقعة التى يرويها مؤرخو سيرته . .

فلقد كان – فى طفولته – متأثراً بموقف الأمويين من الإمام على كرم الله وجهه ، وبالأباطيل التى روجوها ضده . ولم يكن الغلام قد تبين بعدُ وجهَ الحق فى الصراع الذى نشب بين الإمام الراشد الشهيد ، وبين العائلة الأموية . . .

وحدَث يوماً أن ذكر الإمامَ بسوء ، وانتقلت كلمته إلى شيخه الصالح « عبيد الله بن عبد الله بن عتبة » الذى كان – عمر – يكنّ له أعظم الحب والتوقير .

وذات يوم ذهب الغلام لزيارة الشيخ ، فأعرض عنه ولم يغمره بما عوده من وُدّ . .

وأدرك الغلام أن فى نفس شيخه شيئاً منه ، فحاول بسؤال جانبى أن يتبين الأمر ، فانفجر فيه شيخه قائلا :

« متى علمتَ أن الله سَخِط على أهل بدر ، بعد أن رَضِىَ عَنهم » . . ؟ !

وفهمها الفتى الذكى الرشيد من فوره . . !

فهم أن أدنى مزايا « الإمام على » . . وأقل فضائله ، وخصائصه ، أنه من أهل بدر الذين أخبر الرسول أن الله نظر إليهم فقال لهم :

« اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » .

وصحا على هذه اللفتة من شيخه صحوة ذكية رضيّة ، وأقبل عليه يقول له فى خشوع وندم :

« معذرة إلى الله . . ثم إليك »

« والله لا أعود لمثلها أبداً » . . ! ! !

ثم عكف على دراسة القضية من جديد بعيداً عن لغو الأمويين وأباطيلهم ، حتى اهتدى إلى الصواب فى يُسر ، وتحولَّ إلى مُنافح عن الإمام العظيم . . حتى لقد جلس يوماً — كما يروى لنا بعض المؤرخين — بين نفر من العبّاد والصالحين راحوا يستعرضون فيما بينهم أقطاب الزهد والورع فى الإسلام ، فإذا ابن عبدالعزيز يصدع فيهم بهذه الكلمات .

« أزهد الناس فى الدنيا ، على بن أبى طالب عليه السلام » ! ! !

* * *

إن الحديث عن الطفولة المرهصة للأغرّ ابن عبد العزيز لايكاد يُؤْذن بانتهاء إذا نحن استطردنا وراء وقائع الحياة المتسامية للطفل وللغلام .

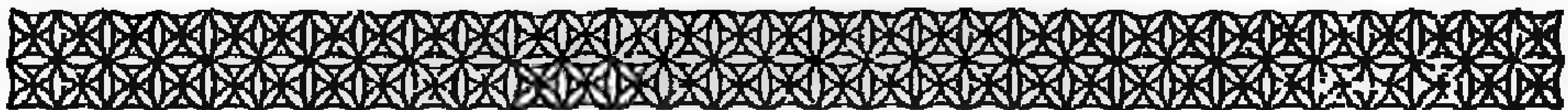
ولقد تجلّت فى تلك السنوات الباكرة الناضرة عزيمة ماضية مقتدرة ، راحت تحرك دوافع الغلام وتقودها على طريق الخير والفضيلة والكمال ، حتى استطاعت طفولته أن تكون نموذجاً متكامل الخصائص والسّمات لسنوات خلافته التى ستجىء بعد ذلك بقرابة ثلاثين عاماً ، ، والتى ستكون آية من آيات الله الكبرى ، ومعجزة فريدة من معجزات الإسلام . .

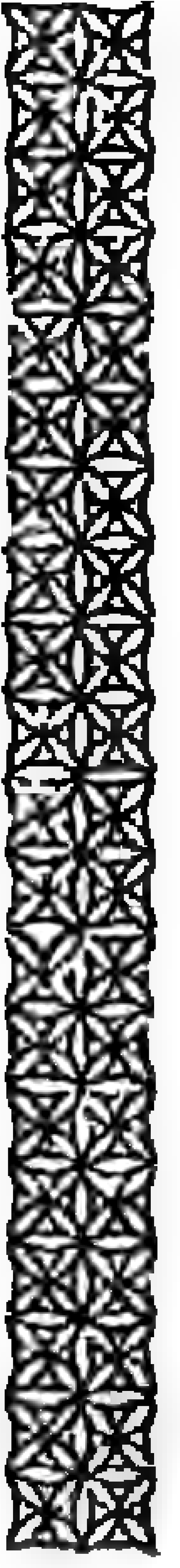
وعلينا الآن أن نتابع هذه الطفولة الفذّة . . أو بتعبير أصح ، علينا أن نجاوزها ونتخطاها ، لنواجه مرحلة أخرى من مراحل تلك الحياة العجيبة المثيرة الجليلة ، ريثما نبلغ فيما بعد ، عصر الخلافة والإعجاز .

الفصل الثانى

النفس التوّاقة

[. . إن لى نفساً توّاقة ، لا تَنال شيئاً
إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه] ! !





حين جاءه الشباب ، ومن بعدِ الشباب الرجولة ، كانت فضائله العالية قد وُضع أساسها فى رسوخ وثبات .

وكانت كفاياته ومواهبه ، قد انطلقت تعبر عن نفسها ، وتعطى من طاقاتها .

وفى فترة الشباب ، بكل ماللشباب من جموح وطموح ، نرى الكفايات كثيراً ماتُؤْثِر أن تنفرد بالعمل بعيدة عن تأثير الفضائل التى تحاول كبح جماحها ، وبخاصة إذا كانت تلك الكفايات والمواهب انعكاساً لطاقة جيّاشة تَمورُ مَوْراً بالحيوية والاتّقاد .

ولقد كانت مواهب ابن عبدالعزيز ، التى فجَّرها شبابه ، من ذلك الطــراز المتَّقد الجيّاش ، بيد أنها لم تكن من ذلك الطراز الذى يؤثر العمل بعيداً عن فضائل صاحبه .

ذلك أن شخصية – عمر – كانت مُتكاملة على نَسق فَذّ ، تكامُلا أتاح أعظم قدر من التعاون والتعاضُد بين المواهب والفضائل فى ذاتِ نفسه ، وبالتالى فى منهجه وسلوكه .

كل الذى سنراه يحدث فى شبابه ورجولته ، أن فضائله التى كانت إبّان الطفولة تعبر عن نفسها وتعلن عن وجودها تعبيراً محدوداً . . ستوسّع الآن – من آفاق تعبيرها ، وانعكاسات وجودها . .

ذلك أن الشباب يجىء دائماً – حين يجىء – بمسافات واسعة للأحلام والرؤى ، والحركة . .

والفضائل التى كانت إبان الطفولة ترسل عبيرها من براعمها الحلوة ، تغادر تلك البراعم الآن ، وتذهب فى نموها الجديد لتملأ المساحة الواسعة العريضة التى جاء بها الشباب . . وهكذا تتعدّد تعبيرات تلك الفضائل ، وتتكاثر مظاهرها .

ولنضرب لهذا مثلاً من حياة « عمر » . .

إن « أناقة النفس » فضيلة بزغت فى طفولته ، ورأيناها تعبر عن نفسها آنذاك بالترفع عن اللعب مع الأتراب والأنداد والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بالترفع عن الدنايا كالكذب مثلا ، الذى أدرك الطفل – وهو طفل – أنه يُزرى بصاحبه ويوقع به الأذى والضُّر . .

كما رأيناها تعبر عن نفسها بتجنُّبها لَغو القول ، ولَغو العمَل ، والاستعاضة عن الأول بالصمت المتأمّل المفكر . . وعن الثانى بالجدّ المثابر المتزن . .

هذه الفضيلة نفسها التى أسميناها « أناقة النفس » نلتقى بها فى شباب « عمر » تنمو وتتمدَّد مستصحبة معها تعبيراتها فى أثناء الطفولة فى نماء جديد لها . ثم مُستحدثة تعبيرات أخرى فجرًّها وعى الشباب ومشاعره .

وهكذا نرى « أناقة النفس » تتسع لتشمل أناقة المظهر ، لا باعتبار هذه الأناقة ترفاً ، أو تأنُّقاً ، بل بوصفها امتداداً لفضيلة أناقة النفس واتساعاً لدائرتها . .

ومن ثمّ نبصر الشاب والرجل فى « عمر بن عبدالعزيز » يلبس أبهى الثياب وأغلاها . . ويُضَمِّخ نفسه بأبهج عطور دنياه ؛ حتى إنه ليعبر طريقاً مّا ، فيعلم الناس أنه عبَره من ذلك الأريج الفوَّاح الذى يعبق به جو ذلك الطريق زمناً طويلاً . ! !

ثم هو يتأنق فى كل شىء . . حديثِه . . لفتاتِه . مِشيتِه التى انفرد بها ، وشغف الشباب بمحاكاتها . وعُرِفت لفرط أناقتها واختيالها بـ « المِشية العُمَرية » . . ! !

ولكن ، لماذا نقول : إن هذا الإفراط فى أناقة المظهر كان امتداداً لفضيلة « أناقة النفس » ، ولا نقول : إنه كان ردَّ فعل لها . ؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل ، هى الإجابة نفسها عن تساؤلات كثيرة ستطرح نفسها علينا كلما رأينا ابن عبد العزيز – وما أكثر ماسنراه – يعبُّ من مناعم الحياة عبًّا ، ويأخذ من أطايبها ومباهجها بغير حساب . .

والجواب عن كل هذه التساؤلات . أننا لم نر فى كل مظاهر النعيم هذه ، ردود فعل تعكس ظمأً أو جوعاً . أو كَبْتاً ؛ لأن صاحبها لم يكن يقف من النعيم منذ وُلد موقف الظمآن المحروم ، ولا الكابِت المكظوم . . هذا ، أوّل . .

وحقيقة أخرى ، هى أن « عمر » فى أروع تألقات وتأنقات شبابه ورجولته ، وفى الأيام التى كان يخوض خلالها فى النعيم خَوْضاً ، لم يُعرف عنه قط أنه ارتكب إثماً أو اجترح خطيئة من تلك التى تُشكل رَدّ فعل لِهَوًى

مكبوت ، أو رغبة مكظومة .

وعلى أية حال ، فإن تفتحاً هائلاً غمر شخصية الشاب والرجل . .

وإن نفسه التوّاقة – كما وصفها هو – لتتقدم خلال هذا التفتح العظيم لشخصيته ، نحو كل المطالع الجديدة لخصائصها وإمكاناتها .

والطبيعة العربية فى جوهرها النقى ، من أشد الطبائع الإنسانية رفضاً للكبْت . حتى حين يكون كبْتاً لأهواء آثمة ، فكيف إذن حين يكون – كما فى موضوعنا هذا – كبْتاً لرغبات مشروعة ، وطموح فاضل وقويم . . ؟ !

وهكذا ندرك أن تلك المباهج التى ستغمر وتميز حياة « عمر » فى هذه الفترة الطويلة من حياته ، لم تكن رَدَّ فعل لفعل مُساوٍ له فى القدر مُضادٌ له فى الاتجاه . . بل كانت امتداداً للفعل الأول ذاته ، ولكنْ فى مطالع جديدة ، وأزياء جديدة . . ! !

وفى هذه الفترة من حياته تتعاون وراثاته مع مواهبه تعاوناً وثيقاً ، فالنفس التوّاقة التى سنراها تحرك مشاعره وتقود خُطاه ، نجدها لَدَى أبيه « عبد العزيز بن مروان » تدفعه هو الآخر إلى معالى الأمور على نحو عجيب ! !

حدث أن لَحن يوماً فى حديثه مع رجل جاء يشكو إليه خَتَنَه ، أى زوج ابنته ، فسأله عبد العزيز : ومَن خَتَنَك ؟

فأجاب الرجل : ختننى الخاتن الذى يختن الناس

فقال عبدالعزيز : إنما أسألك عن اسم خَتَنِك . .

فأجابه الرجل مُعقباً : إذن كان ينبغى أن تقول : من خَتَنُك بضم النون لا بفتحها – فأسرَّها « عبد العزيز » لنفسه فى نفسه . .

وفى اليوم التالى أغلق عليه داره ، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها

مع نفر من العلماء النُّحاة حتى أجادها وأتقنها وصار مضرب المثل فى الفصاحة . . ! !

ليس ذلك فحسب ، بل أذاع بين الناس فى مصر وأفريقيا حيث انتظمهما حكمه وسلطانه أن الذين يتعلمون العربية ويجيدونها سيكون عطاؤهم من بيت المال أوفى من الآخرين .

وتاقت نفسه إلى الجود ، فصار أجود أمراء بنى أمية جميعاً وأسخاهُم ، ولم يكن يعطى عطاءه للشعراء كى يمتدحوه ويتملقوه كما يصنع الآخرون — بل كان يعطى الذين هم بحاجة إلى العطاء .

وكان شعاره فى هذا السلوك كلماته المأثورة :

« عجبت لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويُخلِف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر وحُسن الثواب » ؟ !

ولقد وصفه مؤرخو سيرته ، فقالوا :

« كان من أَعطَى الناس للجزيل » ! !

كذلك كانت نفسه تواقةً للتقوى ، ومخافة الله ، وإن لم يبلغ فيهما مابلغه ابنه من بعده ، ولقد عبر عن هذه الخشية لربه حين أدركه مرض الموت ، فكان يقول !

« وَددْتُ أنى لم أكن شيئاً مذكوراً

« ولوددت أنى دَفْقَةٌ فى هذا الماء الجارى

« أو نَبتة بأرض الحجـــــــاز » . . ! !

هذه النفس التواقة عند الوالد . تنتقل إلى الابن على نحو أعظم ، وأشمل ، وأغزر .

ولسوف نلتقى بشخصيته المتطورة تحيا حياتها فى مهرجان حافل بالنشاط

والإبداع والاستمتاع – لايمنعها تحرُّج ، ولا يسندها تأثُّم ؛ لأنها فى نشاطها وإبداعها واستمتاعها ، لاتعمل بمعزل عن فضائلها ، بل تعمل فى صحبة هذه الفضائل جميعاً . .

* * *

قلنا : إن المدينة يومئذ كانت مجتمعاً كبيراً حافلاً بكل صنوف النشاط الإنسانى .

فالجانب الروحى ، ينهض فى ممثليه من الزهاد ، والعبّاد ، والصالحين . .

والجانب العلمى ، فى مُمثِّليه من العلماء ، والفقهاء ، والمحدّثين . .

ودنيا الفنون ، ممثلة فى الشعراء ، والعازفين ، والمغنِّين . .

ولقد أشبع – عمر – نزعته الروحية منذ طفولته بصحبة العابدين والزاهدين والتلقى عنهم . .

كما أشبع طموحه العلمى بجلوسه الطويل بين أيدى العلماء والفقاء ، وبتعلمه منهم ، وتأسِّيه بهم . .

ولسوف تواصل دوافعه الروحية والعقلية نموها ورحلتها .

لكن الجديد الذى نلتقى به الآن فى شبابه ، هو نزوعه الفنِّى العجيب الذى يكشف عن موهبة فنية أصيلة لديه . . !

إن الرجل الذى أذن لكل مواهبه أن تنشَط وتتألق ، يفاجئنا الآن بصوت شَجِىٍّ عَذْب لو احترف الغِناء لَبَذَّ بصوته أساطِينَه . . كما يفاجئنا بموهبة فى التلحين لو احترفها لبذَّ بها أقطابَه . . يسبق هذا وذاك وَلَعُه بالشعر العربى وحفظه الكثير منه وقدرته على نقده ، وتمييز أجودِه ، من جَيِّده ، من رديئه . .

لقد وضع الفنّان الموهوب لحناً آسراً لهذه الأبيات .

سُلَيْمى أزمَعَتْ بَيْنا فأين تَظُنُها أيْنَا
وقد قالت لأتراب ٍ لها زُهْرٍ تَلاقَيْنا
تعالَيْنَ فقد طاب لنا العيش تعالَيْنا

وراح يتطرب بها ويتغنى لنفسه وبين أصدقائه ، بَيْدَ أَنَّ اللحن لم يلبث حتى ذاع ، فراح المغنون يَشْدُون به فى كل مكان . . !

ولقد كان ابن سريج وهو عميد المغنين بالحجاز يومئذ ، يغنى من لحن « عُمر » .

عَلِق القلبُ سعادا عادت القلبَ ، فعادا
كلما عُوتِب فيها أو نُهِي عنها تمادَى
وهو مشغوف بِسُعدى قد عصَى فيها وزادا

غير أنه برغم استمتاعه بكل صوت جميل . . وانتشائه بكل غِناء عَذْب ، بل على الرغم من صوته الندى الشجِىّ ، لم يكن يُرخى العنان لموهبته واستمتاعه ، فقد كان صوتُ تُقاه يعلو دوماً داخل نفسه ؛ حتى إننا لنراه يقول — أكثر من مرة — وهو يستمع لابن سريج يُغنى :

« لله دَرُّ هذا الصوت ، لو كان بالقرآن » ! !

ونجد الشعر يظفر منه باهتمام كبير ، ولا غَرو . . فالشعر يومئذ كان ثقافة العصر ولُغَته . .

ولئن كان — عمر — لم يقرض الشعر ولم يُنشىء قصائده ، فإن نفسه التوّاقة التى جعلته يُزاحم فى العزف والغناء أقطابهما حتى يتفوّق عليهم دون أن يشاركهم الاحتراف . .

هذه النفس التواقة تدفعه لكى يُدلى فى ثقافة العصر بِدَلْوه العظيم ،

فإلى جانب ماحصل من علوم الدين والفقه ، راح يُقبل على الشعر حافظاً وناقداً . .

ولقد كان الولَع بالشعر من أوضح سمات المجتمع العربى والإسلامى فى تلك العهود .

وفى العصر الأموى ، كان له دَوِىّ كدوىّ النحل ، وكان فحُوله الثلاثة – جرير ، والفرزدق ، والأخطل – الذين نُعتُوا بـ « المثلث الأموى » . . يملأون الدنيا ويشغلون الناس . .

* * *

ولسوف تطرأ على حياة الشاب ظروف جديدة تشد زناد نفسه « التوَّاقة » إلى أقصاه فى مضمار التفوق فى مجال العلم ودنيا الشعر .

ذلك أن أباه – عبد العزيز بن مروان – يموت بمصر حيث كان والياً ويدفن تحت ثراها الطيب ، فيضم الخليفة ، « عبد الملك بن مروان » ابن أخيه إليه ، ويزوجه ابنته « فاطمة » . .

وعبد الملك هذا ، كان طويل الباع فى الفقْه ، والعلم ، والشعر بل كان فى الفقه يُضاهَى بعروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيّب .

قال عنه الشعبى :

« ماذا كرت عبد الملك حديثاً إلا زادنى فيه ، ولا شعراً ، إلا زادنى فيه »

وقال هو عن نفسه :

« شيَّبنى ارتقاء المنابر ، وخوف اللَّحن »

ولعلّ حواره هذا مع جرير يعطينا صورة لخبرته الواسعة بالشعر والشعراء .

فقد سأل جريراً يوماً :

: مَن أشعر الناس ؟

قال جرير : ابن العشرين . يعنى طَرَفَة بن العبد ، لأنه قُتل فى سن العشرين .

قال عبد الملك : فما رأيك فى ابنى سُلْمى . . ؟ يعنى زهيراً وابنه كعباً . .

قال جرير : كان شعرهما نَيِّراً ، يا أمير المؤمنين .

قال عبد الملك : فما تقول فى امرئ القيس ؟

قال : اتخذ الخبيثُ الشعر نعلَيْن .

قال الخليفة : فما تقول فى ذى الرُّمَّة ؟

قال جرير : قدَر على طريف الشعر وغريبه ، كما لم يقدر على ذلك أحد . .

قال عبد الملك : فما تقول فى الأخطل . . ؟

. . . ثم ما تقول فى الفرزدق . . ؟

. . . ثم ما رأيك فى نفسك وشعرك . . ؟

ويمضى الحوار بينهما طويلا – كما يرويه صاحب الأغانى – لتتجلى من خلاله الخبرة العميقة بهذا الفن لعبد الملك بن مروان . والآن ، وعمر بن عبد العزيز يعيش مع هذا العلاّمة تحت سقف واحد . فإن نفسه التواقة تدفعه دفعاً قوياً ليضارع هذا العمَّ المتفوق فى الفقه ، وفى العلم ، وفى الشعر . . !

بيد أن الزمام باق دائماً فى قبضة فضائله . . وأيَّانَ تذهب مواهبه وتُحلِّق ، فإن لفضائله ولدينه الكلمة الأخيرة ، مهما تتوَاثب نفسه التواقة ، ومهما يأخذها الطموح ؛ فمع ولعه بالشعر وإقباله عليه ، نلقاه يعزف عزوفاً نبيلاً عن كل مافيه من إسفاف الهجو والتشبيب . حتى لسوف نراه حين يصبح

والياً للمدينة ، يخرج منها « عمر بن أبي ربيعة » لما كان يزخر به شعره من مجانة ، واستخفاف بالحُرمات . . . ! !

* * *

خلاصة القول أن – عمر بن عبدالعزيز – أسلَم مواهبه لغاياتها البعيدة . .

كما أسلم شبابه لطيبات الحياة ونعيمها فى نطاق ما أحل الله لعباده . .

ولقد ساعد طبيعتَه الجياشة فى الظفر بكل ماتريد ، أنها وجدت فى الحلال أقصى ماتريد . . وأن الشاب الذى لم يكن ينقصه الفقه وسَعة الأُفق . لم يُحاول كبح جماحها أبداً . . ! ! !

لكأنما سرّه منها شرفُها واستقامتها وترفعها ، فكافأها على ذلك وأثابَها بتركها تنال من المناعم ، وتظفر من الطيبات بأقصى ما تشتهى وتريد . .

ولكأنما أراد القدَرُ الحكيم أن يجىء شباب ابن عبد العزيز على هذه الصورة المستغدِقة ، حتى إذا تسنَّم الخلافة فيما بعد ، ووقع فى حياته ذلك الانقلاب الروحى الذى سيحوِّله إلى واحد من أعظم القدِّيسين ، يتبين للدنيا يومئذ أن زهده وورعه لم يكونا مظهراً لطبيعةٍ منطوية ، هادئة ، هامدة . . بل كانا ثمرة تفوق روحى خارق ، على طبيعةٍ هادرةٍ بالطاقة . . جيّاشة بالطموح . . ! !

أجل . . لسوف يُرينا القدَرُ من أمر هذا الرجل عَجباً . . ! !

فبينما هو اليوم يُجاء له بثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير العراق فيتحسَّسه بأنامله ثم يقول متأففاً :

« ما أخشَنه من ثوب . . . ! ! »

إذا به غدا عندما سنلتقى به خليفة للمسلمين ، يُجاء له بثوب خَشِن يعافُه أكثر الناس فقراً ، فيتحسَّسه بنفس الأناملِ ، ثم يقول والدموع تنهمر من عينيه :

« ما أليَنَه ، وأنعمَه . .

إيتونى بثوب أخشنَ مِنه . . . . ! ! ! »

* * *

فليُتَقِ الأمير الأموى ماشاءت له نفسه التواقة الذواقة . فإن فترة تَوَقّيهِ هذه ، ستكونَ المرآة التى تعكس لنا الإعجاز الخارق الذى ستفاجئنا به سنوات خلافته . . ! !

ليَتُقِ الآن ماشاء . . .

ليلبس من الثياب أرفهها وأنعمَها . . وليَنَلْ من المطاعم أشهاها وأطيبها . . وليركب من الجياد أعلاها وأطهمَها . . ومن الفُرش أسخاها وأوثَرها . . ! !

وليَنهل من العلم بغير حساب . .

وليذهب من الفضائل بكل مكرُمة وثواب . .

وليَحتوِ الدنيا بطولها وعَرضها ، كما يحتوى الغلاف الكتاب . . ! !

* * *

هاهو ذا ، يتقلب فى نعيم يتعاظَم كل وصف ، ويتحدَّى كل إحاطة . . إن دخله السنوى من راتبه ومخصصاته ، ونتاج الأرض التى ورثها من أبيه يجاوز أربعين ألف دينار . . ! !

وإنه ليتحرك مسافراً من الشام إلى المدينة ، فينتظم موكبه خمسين جَمَلاً ، تحمل متاعه . . ! !

وإنه لَيشترى الثوب من أغلى الأثواب وأبهاها ، فيرتديه مرة واحدة . . وإنْ تَواضَع فمرتين . . ثم يبدو فى عينيه قديماً بالياً . . ! ! !

وإنه لَيُسْبِلُ إزاره ، حتى يكاد يتعثر بذيله المفهاف . . ! !

ويمشى مِشية متأنقة ، يكاد يحسده عليها الطاووس . . ! !

ويَعصِف ريحه ، ويتضوَّع عبيره حيثما سار . . ! !

إنه لَيبدو ، وكأنه فى سباق ضارٍ – لا مع أصحاب النعيم – بل مع النعيم ذاته . .! !

فوا عجباً . .! !

كيف يستطيع هذا الرجل أن ينسلخ من هذا كله ، وفى لحظة من الزمان ، حين تواتيه الخلافة ؛ حتى يذهب إلى أقصى أبعاد النقيض وآماده . .؟ ! !

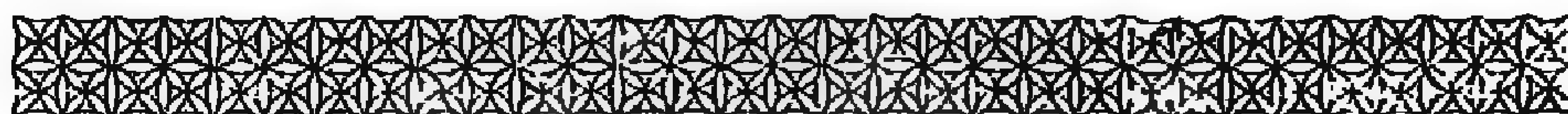
ألاَ إن شوقنا لرؤية ذلك التحول المذهل ، لَيكاد يُعْجِل بنا ويقفز . .

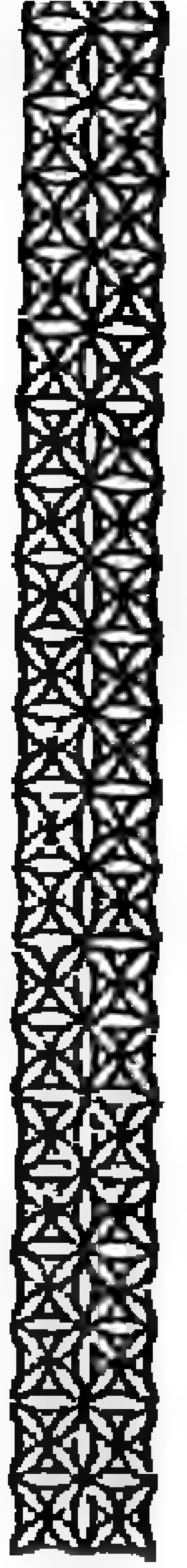
لكن علينا أن نُصابر ونَستأنى ، حتى لا يفوتنا من مشاهد حياة ذلك الإنسان المعجز مانحن فى حاجة إليه ، لكى نرى كل ملامح الصورة . . وزوايا الإطار . . ! !

الفصل الثالث

التجربة

[.. أرى دنيا يأكل بعضُها بعضاً] !!





فى سنه الخامسة والعشرين . اختاره الخليفة الأموى – الوليد بن عبد الملك – ليكون والىَ المدينة وحاكمها .

وتهللت المدينة لهذا الاختيار ، فسيرة ابن عبدالعزيز كانت تسبقه إلى كل مكان كالعبير . .

ثم إنه بما عُرف عنه من فضل ، يَلِى إمارة المدينة مكان أميرها المخلوع – هشام بن إسماعيل – الذى كان لظلمه ولشراسته موضع النقمة والاستهجان .

وإن الأمير الجديد لَيبدأ حكمه بداية تُؤلِّق من فورها الفارق . العظيم بين طرازه ، . . وطراز الولاة الآخرين . .

فبينما كان سلفه يحيط نفسه بطائفة من القُساة الغِلاظ الفاسدين ، فيلقى فى رُوع الناس ، بمسلكه هذا ، أن العملة الزائفة هى الرائجة – جاء هذا الأمير المبارك فأعلن بمنهجه الجديد والمجيد أنه لا يصحّ إلا الصحيح ! ! وأن الخير ، لا الشر . والصدق ، لا الملَق . . والاستقامة ، لا الزيغ . . هى دستور إمارته ومنهج عصره . . ! !

ومن ثمَّ بدأ – أول مابدأ – باختيار عشرةِ من أئمة العلم والورع والفضل فى المدينة ، فجعلهم مجلس شُوراه .

وهؤلاء العشرة هم : [عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبوبكر بن عبد الرحمن ، وعروة ، وأبوبكر بن خيثمة ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله ابن عامر ابن ربيعة] .

وفى أول اجتماع له بهم قال لهم . :

« إنى دعوتكم لأمر تُوجَرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً لى على الحق . .

أناشـــدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً إلا أبلغتمونى أمره ، وأرشدتمونى إلى الحق » . .

ولقد كان فى استهلاله هذا بتقدير أهل الصلاح والتقى والعلم . إنما يرفع للناس جميعاً لواء الحياة الجديدة التى سَيحيَوْنها فى إمارته ويملأ أنفسهم بالسكينة والأمْن . .

* * *

وراح يجعل من ولايته مثلاً عالياً . واتسعت رقعة سلطانه فصار والياً على الحجاز كله – مكة ، والمدينة ، والطائف ، وما حولها .

ولكأنما أراد القدر أن يجعل من إمارته هذه تجربة للمهمة الجليلة والعظيمة التى يدَّخرها له فى غد ، يوم تنتهى إليه خلافة المسلمين ، وحكم الدولة المسلمة من أقصاها إلى أقصاها . .

وسنرى كيف تبلغ التجربة مداها البعيد من النجاح والتوفيق . فابن

عبد العزيز يضع كلتا عينيه على أخلاقيات الحكم ؛ ليجعل من إمارته واحة رَيّانة خضراء وسط الجحيم الذى كان يُؤَرِّث ناره أكثر الولاة الأمويين . . !

وإنه لَيلتمس مجده ، لا فى صَلَف المنصب وجَبَروتِه ، بل فى تواضعه الشديد للناس ، وفى العدل يتحرَّاه ويقيم موازينه بالقسط ، وبالرحمة ينشر ظِلَّها على كل مُصْطلٍ وحَرُور ، ويمنح دفئها كل مُفَزَّع مقرور . . ! !

وهكذا صار – وفى سرعة فائقة – مَهْوَى أفئدة الناس وموضع حبهم الوثيق . . ! !

والعلماء الذين كانوا لصلاحهم وتَرفُّعهم يتجنبون الولاة والأمراء . ولا يحملون لأكثرهم مودة ولا احتراماً – راحو يَهبون إجلالهم الصادق لابن عبد العزيز ، حتى إن « سعيد بن المسيب » وهو يومئذ من أعظم علماء المسلمين كافة ، والذى كان يرفُض طوال عمره أن يسعى لزيارة أمير أو خليفة ، بل كان يرفض استقبال الأمراء ومجالستهم . . هذا العالم الورع الكبير نراه اليوم يخفّ فى جلال مَشيبه إلى دار الإمارة مرات ومرات ليلتقى عمر بن عبد العزيز ، ويجالسه ، ويُحادثُه . . ! !

* * *

راح الأمير الشاب ينشر بين الناس العدل والأمن ، وراح يُذيقهم حلاوة الرحمة وسكينة النفس ، مخترقاً ذلك الستار الرهيب الذى أحاط الأمويون به أنفُسَهم ومُلكَهم صارخاً بكلمة الحق والمعْدَلة ، نائياً بنفسه عن مظالم العهد وآثامه ، متحدياً جبَّارِيه وطُغاتِه . . وعلى رأسهم الحجاج ابن يوسف الثقفى . .

حدث يوماً أن أناب الخليفة عنه فى موسم الحج ، طاغية العراق الحجّاج .

وكان « عمر بن عبدالعزيز » يمقته أشد المقت بسبب طغيانه وعَسْفه ، فأرسل إلى الوليد بن عبدالملك – الخليفة يومئذ – يسأله أن يأمر الحجاج ألّا يذهب إلى المدينة ، ولا يمرّ بها ، برغم أنه يعرف ماللحجاج من مكانة فى نفوس الخلفاء الأمويين . وفى نفس « الوليد » بصفة خاصة . بل برغم إدراكه لما سيسببه موقفه هذا من إثارة مغايظ الحجاج الذى كان ذا مقدرة رهيبة على الانتقام لنفسه .

ولقد أجاب الخليفة طلب – عمر بن عبد العزيز – وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن « عمر بن عبد العزيز » كتب إلىَّ يَستعفِينى من مَمَرِّك عليه بالمدينة ، فلا عليك ألاَّ تمرَّ بمن يكرهك ، فَنحِّ نفسك عن المدينة » . .

* * *

إن مقت « عمر » لرجل كالحجاج ، وهو لم يتبوَّأ منصب الخلافة بعد ، ولم يقع له ذلك الانقلاب الروحى الهائل الذى سنشهده حين يُستخلَف ، لَيكشف عن نقاء جوهره . وأصالة تقواه .

فالأمويون مدينون للحجاج إلى مدى بعيد ببقاء ملكهم واستمزاره ، واتساع رقعته . . وهو لهذا كان موضع إعجابهم ، ورعايتهم .

ولكن ، ماذا يعنى رجلاً كعمر بن عبد العزيز ، من هذا المُلك العريض ، إذا كان قد قام واتسع على أكتاف طُغاة كالحجاج ؟ ؟

إن موقفه هذا من الحجاج ومن نُظرائه ، يُزكّى إحساسنا بأن القدر أراد لفترة الإمارة هذه أن تكون تجربة لغده العظيم . فعمر يعلم – كما أسلفنا – أن تحدّى الحجاج ليس أمراً سهلاً . إذ كان الحجاج يومئذ قوىّ القبضة على الكثير جدًّا من مقادير الدولة ومصايرها .

وهو يعلم أن خلفاء بنى مروان مستعدون أن يضحوا بكل عزيز وغال فى سبيل الحجاج ؛ ماداموا لايزالون بحاجة إلى بطشه ودهائه . .

لكن ذلك لايعنى الرجل الأمين على مسئولياته . . إن الذى يعنيه ويتحتّم عليه . هو أن يأخذ جانب الحق مهما تكن العقبات والعواقب . .

إنــه الآن يرى الأمور رؤيـة ذكية ، وإنّ تجربة الولاية والحكم لتُنىء عليه بصراً سديداً بما يجرى حوله فى الدولة الواسعة العريضة التى يسوسُها الأمويون .

وهو ، وإن يكن أميراً أمويًّا ، لا يُخدع بالمظاهر الفارغة عن الواقع والحقيقة ، ولا يبيع دينه بدنيا عائلته وقومه . . ! !

* * *

إن الدنيا تموج من حوله بالأطماع والضلالات .

إنها كما أرتْه تجربتُه ، وكما وصفها هو : [دنيا يأكل بعضها بعضاً] . . ! !

ولو كان أمر هذه الدنيا بيده لقَوَّم اعوجاجها . . ولكن ليس بيده الآن سوى إمارته . .

أجل . . إن سلطانه – بل بعض سلطانه – إنما ينحصر فى بلاد الحجاز وحدها ، حيث هو أميرها وواليها . . وإذن فليؤد واجبه

تجاهها ، وليطبعها بطابع شخصيته المستقيمة الصادقة العادلة . فما ينبغى أن يظل وجه الحياة بعد مجيئه كما كان قبل مجيئه . . ! !

لا بد أن يتغير كل شىء . . الناس بنفوسهم وسلوكهم . . والأرض بما فوقها من عمارة ، وبما يشقُّها من طرقات وقنوات . .

وهكذا راح يُعمِّر ويُعمِّر ، بادئاً بالمسجد النبوى فأعاد بناءه . . وأرسل بعثات التعمير فى كل أرض الحجاز ، يحفرون الآبار ، ويشقُّون الطرق . .

وفى حدود ولايته وسلطانه ، ردَّ للأموال العامة كرامتها وحرمتَها ؛ فلم تعد سهلة المنال لكل ناهب وخالِس ، كما لم تعد ألعوبة فى يد كل مُسرِف ومُترَف . بل وجد كلُّ درهم مكانه الحق والصحيح ، لا يجاوزه ولا يتعدّاه . . ! !

وفتح أبواب المدينة للهاربين من ظلم الولاة فى كل أقطار الدولة . . وحماهم من المطاردة ، ووفر لهم الطمأنينة والأمن . .

* * *

وفى العام الثانى من إمارته حدثت ظاهرة يكتفى المؤرخون بمجرد تسجيلها ، على حين نرى فيها سبباً وثيقاً من أسباب التطور بل الانقلاب الروحى الذى سيغمر شخصيته بعد حين . فى ذلك العام ، ولاّه الخليفة إمارة الحج . ولم يكد موكبه يبلغ مكة حتى ألْفَى أهلها فى قَحط وعُسْر ومَشقة ؛ فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم ، ثم خرج بهم إلى فضاء مكة ، ثم وقف « ابن عبد العزيز » يدعو الله ويَضْرَع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء . . فإذا شىء يشبه المعجزات ، إذ لم يغادر مكانه حتى هطل المطر على غير موعد ، وفى غير ميقاته ، ولم يصدق الناس أبصارهم التى راحت تُحدِّق فى سماء زرقاء ناصعة

صافية ، ليس فيها مُزعة سحاب . . ! !

وشهدت مكة فى عامها ذاك خُصوبة نادرة ! !

فى تقديرنا ، أن هذه الظاهرة لابد أن تكون قد استقرت واستكنّت فى أعماق نفس « عمر » متحولة مع الأيام إلى خبرة روحية سيكون لها أثرها المباشر فى انقلابه الروحى المقبل . .

إذ لابد أن يكون « شعوره » أو « لاشُعورُه » أو هما معاً قد أدركا أمام هذه الكرامة الواضحة ماأودعه الله فى روحه من سِرٍّ ، وولاية ، وقَداسَة . . . !

* * *

على أية حال ، فقد استغرقت الأميرَ مسئولياتُه ، فابتعد عن الكثير من هواياته — عن الشعر والشعراء . . والمغنين والغناء . . وإن بقى له شَغفه بالتأنق وطيبات الحياة .

رآه يوماً أحد الزهاد يشترى ثوباً رافهاً بثمن غال ومرتفع فقال له :

— أوَ مَا كان الخير لك أن تضع ثمنه فى جيوب الفقراء ؟ فلم يغضب ولم يستنكف ، بل أجابه قائلا :

[وهل رأيتَنى أهملتُ الفقراء . . ؟] !

وهو جواب حق لامراء فيه ، فقد كانت أيام إمارته على المدينة والحجاز أيام رخاء وبركة ، قلما شهد الناس مثلها .

ولم تَشغله الإمارة عن تجويد فضائله وتنمية تُقاه ، فعكف على العبادة عُكوفاً مُثابِراً ، وكثيراً ما كان يحلو له أن يقضى الليل فوق سطح مسجد الرسول يعبد الله ويدعوه . .

صلىَّ وراءه « أنس بن مالك » صاحب رسول الله ثم قال :

« ماصليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله من هذا الرجل » ! !

كذلك لم تَشْغَلْهُ الإمارة عن مُواصلة التزوُّد من العلم والفقه ، فراح يُثْرى عقله ويملأ بالعلم فكره ، حتى صار فى هذا المضمار حُجَّة وإماماً . .

وقف أبو النضر المدينى يخاطب علماء المدينة يوماً ، فقال وهو يشير صَوْب « عمر بن عبدالعزيز » :

[إنه والله أعلمُكُم] . . ! !

بل إن العالم الجليل « مجاهد بن جبير » الذى عَرَض القرآن على « ابن عباس » ثلاثين مرة . . والذى كان من الأئمة المعدودين ، يقول عن « عمر بن عبد العزيز » :

« أتينا عمر نُعلمه ؛ فما رجعنا حتى تعلّمنا منه » ! !

والإمام « اللَّيْث » يقول أيضاً :

« ما التمسنا علم شىء ، إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه . وما كان العلماء عنده إلا تلامذة » . . ! !

إن هذه الشهادة من أولئك الأقطاب الكبار . لترسم صورة باهرة للطريقة التى كان عمر يُنمِّى بها فضائله العقلية والروحية .

تُرى إلى أى مدًى يستطيع النظام العام للدولة الأموية أن يحتمل رجلاً من طراز عمر . . تكشف استقامته ونزاهته كلَّ عَوْراتِ ذلك النظام وتَفضح سوآتِه . . ؟ !

إنــه لن يصبر عليه إلا قليلا . . وعلى الرغم من أنه أمير بارز فى أسرة بنى مروان الحاكمة ، وعلى الرغم من أنهم جميعاً ، وبلا استثناء ، يهابونه ويحترمونه ؛ فإنهم لن يطيقوا على منهجه الجديد المجيد صبراً . .

* * *

لقد كان دائم التنديد بسوء الحكم وطغيان الولاة . ولقد قلنا من قبل : إن الحجاج طاغية بنى مروان . لن ينسى مقته له : ولا تشهيره به .

وها نحن أولاء ، نراه ينتهز فرصة إيوائه بعضَ المعارضين لمظالم العهد والمنددين بها ، فينسج مؤامراته ووشاياته مُوغِراً صدر الخليفة على ابن عمه وزوج أخته ، وواليه على الحجاز « عمر بن عبدالعزيز » . .

لقد أرسل الحجاج إلى الخليفة – الوليد بن عبدالملك – يشكو إليه استقبال « عمر » وإيواءه كل الذين يطلبهم الحجاج ليحاكمهم على مؤامراتهم ضد الأمويين . .

ولقد كان السبيل ممهداً لوشاية الحجاج . وربما لأية وشاية تريد النَّيْل من – عمر – . ذلك أن منهجه العام كان من السمو بحيث لا يطيق الآخرون من بنى مروان محاكاته ، بل لا يطيقون مُعايشَتَه . .

علم الخليفة يوماً أن بعض الناس فى إمارته يُمعنون فى تجريح الخلفاء الأمويين وسَبِّهم ، فاستدعاه إليه وسأله :

ماتقول فيمن يَسُبُّ الخلفاء ؟ . أَيُقتل . . ؟

فصمت « عمر » ، ولم يُعَقِّب . .

وازداد الخليفة تجهُّماً وعُبوساً ، وأعاد سؤاله :

ماتقول فيمن يسبُّ الخلفاء ؟ – أَيُقتل . . ؟

وفى استمساك وثيق بدينه وبفضائله ، أجابَ وهو غير مُلْقٍ للعواقب بالاً :

« هل قَتَل نفساً بغير حق ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟ »

قال الوليد : لا ، ولكنه سَبَّ الخلفاء ، وانتهك حُرماتهم .

وفى هدوء راسخ ، أجاب « عمر » :

« إذن يُعاقَب بما انتهك للخلفاء من حُرمة ، ولكن لايقتل . . » ! !

وأنهى الخليفة المقابلة بإشارة غاضبة رَعْناء ، وانصرف « ابن عبد العزيز » عنه وهو يتوقع منه نقمة عاجلة ، صَوَّرتها كلماته هذه :

« . . فخرجتُ من عنده ، وما تَهُبُّ ريح إلا وأظنها رسولاً منه يدعونى إليه » ! !

* * *

فى هذا الجو المتوتر ، قرر الحجاج أن يصطاد غريمه ، فألقى وشايته السالفة . .

والحق ، أن « عمر » : كان يفتح صدره ، كما يفتح أبواب المدينة للهاربين من طغيان الحجاج ، وغير الحجاج .

والحق أيضاً ، أنه كان يحترم حقهم فى نقد أخطاء الحكم وكشف زيفه وفساده .

بيد أنه لم يكن بين هؤلاء الذين يُؤويهم ويَحميهم من يُدبِّر انقلاباً مسلحاً ضد الدولة ، كما حاول الحجاج أن يُوهِم الخليفة الوليد . .

ولعل وشاية الحجاج كانت ستبُوء بالخِذلان ، لو أن « عمر » اصطنع قليلا من المسايرة واللين فى دحضها . .

لكن فطرته الطاهرة النقية الجياشة ، لم تكن تعرف فى مثل هذا المجال مُسايرة ، أو لِيناً . .

وهكذا ، لم يكد الخليفة يرسل إليه متسائلاً عن دعوى الحجاج ، حتى كتب له رداً يفيض بأساً وصرامة .

فقد راح يحدثه عن العدل الغائب والظلم المخيِّم . . ويُدمْدِم غليه بالمظالم البشعة التى يقترفها الحَجّاج وأشباهه تحت ستار استبقاء السلطان لبنى مروان . . وراح يصارحه ، بأنه ليس ثمة دولة تحترم نفسها ، تَقبل أن يكون طاغية كالحجاج بين وُلاتها . .

ثم قال قولته الصادعة الرائعة :

« لو جاءت كلُّ أمة بخطاياها يوم القيامة ، . . وجئنا نحن بالحجاج وحده لَرجَحْناها جميعاً » . . ! ! !

ورأى « الوليد » نفسه أمام كفاية خُلقية قادرةٍ على تحدِّيه بل إهانته ، فأصدر أمره بعزل « عمر » عن ولاية المدينة والحجاز . .

وغادر البطل المدينة التى لم يُحِبّ فى الدنيا بلداً ، قدر حبه لها . .

غادرهاإلى الشام ، بعد أن لبث فى ولايتها ستة أعوام ملأ البلاد خِلالها عُمراناً وأمْناً ، وملأ الناس رخاء وبهجة . . ! !

* * *

وفى الشام لم يسأل نفسه ، ماذا يصنع . . ؟ ولا كيف يقضى أوقات فراغه ؛ فلم يكن فى حياته فراغ . . إن كل دقيقة فيها مشغول بالعمل ، مملوءة بالطاقة . . وإن الجهد المبذول لِبلوغ الكمال المرموق ، لَيدفع كل ساعات حياته ودقائقها فى طريق هذه الرحلة المقدسة والسفر المبارك الميمون . . ! !

وفَوْرَ رجوعه إلى الشام ، وجد جيش الدولة يتحرك للقاء جيش الامبراطورية الرومانية الشرقية التى كانت دائبة التحرش بالدولة المسلمة والشَغَب على حدودها . فانتضَى « عمر » سلاحه وحمل نِيَّته الصالحة ،

وأخذ مكانه بين المقاتلين – جنديًّا عاديًّا ، يرجو ظفر المؤمنين أو عُقْبَى الشهداء الصالحين . . ! ! !

ويعود من الحرب ، فيعكُف على نفسه فى محراب الفضيلة والتُّقى . .

وكما وجدناه فى المدينة يُؤْثِر صحبة الأبرار من أمثال « عبيد الله ابن عُتبة » . نجده فى الشام يؤثر صحبة الأخيار ، أمثال « رجاء بن حَيْوَة » . . كما راح يراسل إمام عصره « الحسن البصرى » ويتعلم منه ، ويحاول السير على دَرْبه . .

وراح يدير خواطره على أُخطاء الدولة ومشكلات الجماعة .

وكثيراً ما كان يأخذه الأَسَى والجزع – ولكن ماذا يصنع وليس له من الأمر شىء . . ؟ !

إن كل ما يستطيعه ، أن يرفع صوته عالياً ضد الفساد والظلم ، ولقد فعل . .

وكان الناس يتناقلون عنه فى شتَّى الأقطار بعض عباراته اللافحة التى يقذف بها فى وجه البيت الأموى الحاكم .

من تلك العبارات قوله :

« الوليد بالشام ، والحجّاج بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقُرّة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب . . ؟

« . . . امتلأت الأرض والله جَوْراً » ! ! !

* * *

ويموت « الوليد بن عبد الملك » . .

ويخْلُفُه أخوه « سليمان بن عبد الملك » . .

وعلى الرغم مما يُكِنه « سليمان » لعمر بن عبد العزيز من إجلال ومحبَّة ، فقد خافه « والياً » . . ومن ثم آثر استبقاءه أخاً وصديقاً . . وإن زاد ، فَناصحاً . . ! !

كانت روح « عمر » تسمو صاعدة نحو مطالعها .

وكانت العبادة تصقُل روحه ، كما يصقل العلم فكره ، وراح يُثابر على أداء دوره مُبَشِّراً بالفضيلة ، والحق ، والخير ، نذيراً ضد السوء ، والضلال ، والشر .

وإنه لَيقيس بمقياس الدين القويم كل اتجاهات الدولة فى حروبها وسياستها . . فى مجتمعها ، واقتصادياتها ، وأخلاقياتها . . فيجدها فى كل ذلك جانحة لهوى الخلفاء والأمراء والولاة ، بقدر ما هى بعيدة عن روح الدين ومنهجه . .

هنا لك أخذ على عاتقه الجهر دوماً بهذه الحقيقة وإعلانها .

* اصطحبه الخليفة « سليمان » يوماً لزيارة بعض معسكرات الجيش .

وأمام معسكر يعجُّ بالعتاد وبالرجال ، سأله « سليمان » فى زَهْو :

ما تقول فى هذا الذى ترى يا عمر . . ؟ !

وسَرعان ما جاء جواب عمر ، كقاصمة الظهر ، فقد قال :

« أرى دنيا ، يأكل بعضها بعضاً وأنت المسئول عنها ، والمأخوذ بها ».. ! !

وبُهت الخليفة لهذه الإجابة التى لم يكن يتوقعها ، فعقَّب عليها قائلا له : ما أعجبك . . ؟ !

وإذا « عمر » يجيب قائلا :

« بل ما أعجبَ مَن عرف الله فعصاه . . وعرف الشيطان فاتَّبعه . .

وعرف الدنيا فركَن إليها ؟ ! ! !

* كذلك اصطحبه الخليفة فى رحلة للحج . . وفى الطريق فتحت السماء أبوابها بماء مُنْهَمِر ، ففزع سليمان ، وأرعبه السيل الكاسح . ونظر فإذا ابن عبد العزيز يضحك ؛ فسأله سليمان :

أَلِمِثْلِ هذا يضحك الناس ..؟ !

فأجابه عمر :

« يا أمير المؤمنين . هذا فى حين رحمته ، فكيف به فى حين غضبه »؟! !

أجل . . إذا كان المطر الذى هو من آثار رحمة الله وغَوْثه ، يمكن أن يبتعث الخوف ويُوقع الضُّرَّ ، فكيف بغضب الله وعقابه . . كيف بنقمة التى أعدَّها لتكون نِقَماً ووبالا ؟ ؟ .

* * *

على هذه الوتيرة ، راح – عمر – يُلقى نُـذُرَه ، محاولاً أن يفتح الأعين العُمْى ، والآذان الصُمّ . .

وعمَّا قليل ستمد الأقدار يمينها نحوه ، هاتفة به كى يتقدم ليحمل المسئولية الكبرى ، خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين .

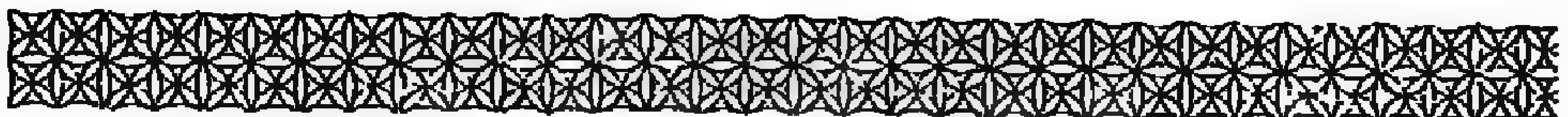
فإلى أن نلتقى – إن شاء الله تعالى – فى أروع أيام حياته تلك . . بل أروع أيام حياة البشرية المتسامية كلها ، علينا الآن أن نلقى نظرة سريعة على نوع ذلك الميراث المبهظ الفادح ، الذى سيُكتب على ابن عبد العزيز أن يحمله ويُقوّم اعوجاعه . .

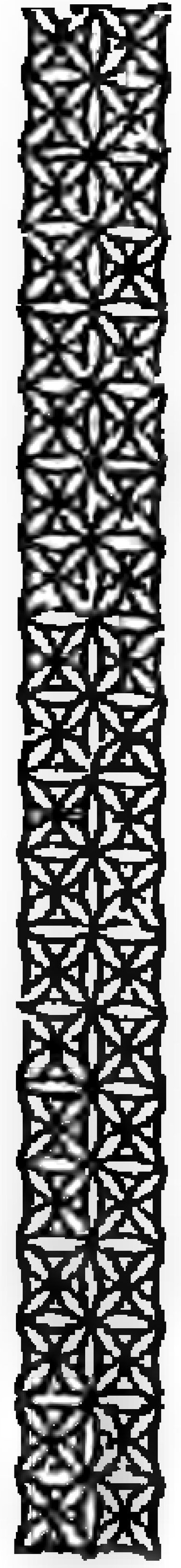
هذا الميراث الذى ينتظم العهد الأموى ، الذى بدأ باستخلاف معاوية ، ويقف الآن عند سليمان بن عبد الملك بن مروان . .

الفصل الرابع

التركة القاتلة

[انجُ سَعْد . . .
فقد هلَكَ سَعيد] ! !





استقر الأمر لمعاوية بالشام حاكماً للمسلمين ، بعد خدعة التحكيم فى « صِفِّين » ، وبعد استشهاد الإمام على ، على يد أحد الخوارج الذين أضاعت الفتنة صوابهم . . ثم بعد الصلح الذى عقده معه « الحسن بن على » ليحفظ به دماء المسلمين .

استقر له الأمر ، فراح يضع فى دهاء وصبر ، أساس دولة أموية طويلة العمر ، ممتدة على الزمان .

ولسنا هنا بصدد تصويبِ أو إدانةِ موقف « معاوية » فى نزاعه مع « الإمام » . فقد فصلنا ذلك فى مُؤلّفاتنا — « فى رحاب عَلِىّ » ، و « وَداعاً . عثمان » ، و « أبناء الرسول فى كربلاء » . . .

لكننا نكتفى هنا ، كمدخل للموضوع ، بِرَفْضِ ودَحْض الموقف الذى وقفه « معاوية » باستخلاف ولده يزيد وأخذه البيعة له . .

هذا « اليزيد » الذى هدم بالانحلال والقسوة ما بناه أبوه بالدهاء والحلم ، والذى سَنّ للدولة الأموية على طول عهدها شريعة الغاب التى

سارت عليها وقامت بها . .

ومن عجبٍ أن هذا الذى توسَّل به « معاوية » لاستبقاء الملك فى بيت أبى سفيان . . توسَّل به القدَرُ فى الوقت نفسه لحرمان هذا البيت من الخلافة والملك إلى الأبد ، بعد أربع سنوات لا غير من استخلاف يزيد . . ! ! !

فقد مات « يزيد » بعد أعوام أربعة قضاها فى المُلك عابثاً جباراً . . ! !

وفى مرض موته خَلَع المُلك على ولده « معاوية الثانى » حرصاً منه على أن تظل راية الخلافة خفاقة فوق بيت أبى سفيان ! !

لكن القَدَر العظيم كان يُعِدّ مفاجأة أذهلت الدنيا ولا تَزال . .

ذلك أن « معاوية الثانى » ذلك الشاب التقىّ الورع ، جمع الناس فى يوم مشهود ، ونهض فيهم خطيباً ، فقال :

« إن جَدّى معاوية نازَع الأمرَ أهلَه ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ، وسابِقَتِه فى الإسلام ، وهو على بن أبى طالب . . ! !

« ثم تقلَّد أبى – يزيد – الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهلٍ له . . ركب هواه وأخلَفه الأمل . . ! !

« وإن من أعظم الأمور علينا ، علمنا بسوء مُنْقلَبِه وقد قتل عِتْرَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأباح الحرم ، وخرَّب الكعبة . . ! !

« وما أنا بالمتقلد أمرَكم ، ولا المتحمِّل تبعاتِكم . . فاختاروا لأنفسكم » . . ! ! !

وعكَف الشاب الصالح فى داره رافضاً الخلافة حتى لَقِى ربه راضيًا مَرْضِيًّا . . .

وهكذا ، لم يُحرَم بيت أبى سفيان آماله فى استبقاء الملك فحسب . .

بل تلقَّى وثيقة إدانة رهيبة من أحدِ بَنية الأبرار ! !

ولقد أفضى موقف « معاوية الثانى » إلى زلزال وبيل أصاب حكم الأمويين بدوار خلع أفئدة جبَّارِية من أمثال عبيد الله ابن زياد ، قاتل الشهيد المجيد « الحسين بن على » رضى الله عنه . . فرأينا ذلك الطاغية يهرب متنكراً فى ثياب امرأة حتى يُصرع فيما بعد قتيلا . . ! !

وتمزقت الدولة تمزقاً وضعها على شفَا الهاوية ، وكاد الأمر ينتهى ا « عبد الله بن الزبير » ليستقيم به على الجادَّة ، لولا ظروف كثيرة لا مجال لتتبُّعها هنا ، هيأت لمروان بن الحكم أن يقفز إلى مِنصَّة الحكم وسط فتن مظلمة ، ومؤامرات ماكرة . .

وهكذا ، انتقل الحكم من بيت أبى سفيان ، إلى بيتٍ أموىٍّ آخر ، هو بيت مروان . .

ومَروان هذا ، صاحب تاريخ مُريب ، مُذْ كان رئيساً لديوان الخلافة فى عهد « عثمان » رضى الله عنه . .

وإن له لَمواقف كثيرة تدمغه وتدينه . .

ولقد بدأ تجربته الشّريرة هنا — فى مصر — إذْ كان واليها يومئذ « عبد الرحمن ابن جحدم » مناصراً لعبد الله بن الزبير .

وكانت مصر حصناً يرهبه مروان ، فجاء إليها على رأس جيش هزم به عبد الرحمن بن جحدم ، ثم دعا الناس إلى بيعته طَوْعاً وكَرْهاً .

وحين احتفظ الكثير منهم ببيعتهم السابقة لابن الزُّبَيْر ، ضرب أعناق ثمانين منهم ليرهب بهم الباقين . . ! !

وفى الوقت نفسه ، أرسل عبيد الله بن زياد إلى العراقِ ، وأمره أن يستبيح الكوفة بعد فتحها . . ! !

وغدر بخالد بن يزيد الذى كان قد أقامه وليًّا لعهده . . كما غدر بعمرو بن سعيد بن الأشدق ، الذى لولا بلاؤه العسكرى ما استقر الأمر لمروان . .

وهكذا بدأت الدولة الأموية المروانية مَنهجها فى الحكم بالقهر . . . وبالغدر . . ! !

وقبل أن يموت مروان الذى لبث فى الحكم عشرة شهور . أخذ البيعة لولده « عبد الملك » ومن بعده « عبد العزيز » . أى أنه سار على نهج معاوية ، فجعلها هِرَقْلية . كلما مات هِرَقْل ، قام هرقل ! !

وينهض عبد الملك بن مروان « بالأمر » ومن بعده ولده « الوليد » . ومن بعد الوليد « سليمان » .

وخلال هذا العهد تقوم – لا سِيَّمَا فى عصر عبد الملك – إنجازات هائلة ، لا يُغمط لها قَدْر . .

لكنْ إلى جانب تلك الإنجازات ، يصيب الدولة من الفساد ، ويصيب الناس من الرعب ، ويصيب الحياة من التزييف ، ما يُشَكِّل « التركة القاتلة » التى سَيُرْزَأ بها « عمر بن عبد العزيز » حين تضع المقادير على كاهله مسئولية الخلافة .

فماذا كانت هذه التركة الرهيبة . . ؟ ؟

لقد تمثلت فى القسوة الواغِلَة التى توسَّل بها بنو مروان لتمكين سلطانهم . .

وتمثلت فى الفساد الذى غطَّى حياة الدولة وحياة الأمة معاً .

وتمثلت فى تزييف القِيَم والحقائق ، مما جعل الناس يومئذ يعانون – لا فَراغاً – بل خراباً فِكريًّا رُوحيًّا مُدمِّراً . .

* * *

* فأما منهج المروانيين فى القسوة والبطش ، فيبدو واضحاً فى اصطناعهم الحجّاج ونُظَراء الحجاج .

لقد اختاره « عبد الملك » لقتال « عبد الله بن الزبير » لمجرد أنه ندَب نفسه لهذه المهمة التعسة قائلا لعبد الملك : لقد رأيتنى فى المنام أمسك بعبد الله بن الزبير ، ثم أقوم بسلخه ، فابعثنى إليه ولِّنى أمر قتاله . . ! !

وعلى الفور يبعثه عبد الملك ، ليحقق رؤياه ، وليقوم بسلخ ابن حَوَارِىِّ رسول الله . . وابن « أسماء » ذاتِ النِّطاقين . . والعابد القانِت الأوَّاب ...! !

ومضى الحجاج التعس إلى غايته ، فما أبْقى على حُرمة . .

نصب المنجنيق فوق جبل أبى قُبَيس ورمى به المسجد الحرام فى الشهر الحرام ، والمسلمون يؤدون شعائر الحج ومَناسِكه . . ! !

وتلقى مكافأته من عبد الملك الذى ولاه على مكة والمدينة واليمن واليمامة . ثم نقله إلى العراق ليصبَّ عليه بطشه .

ولا يكاد يضع قدمه فوق أرضه حتى يخطب فى أهله خطبته المشهورة :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قِطافُها ، وإنى لَصاحِبُها . .

« ولكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى ، قد شمّرت عن ساقها تشميراً . .

« وقسَماً بالله ، لآخذن الولىّ بذنب مولاه ، والمقيم بذنب الظّاعِن ، والمطيع بذنب العاصى ؛ حتى يلقَى الرجل أخاه ، فيقول له : انْجُ سَعْد . . فقد هلك سَعيد » ! ! !

انج سعد ، فقد هلك سعيد . . . ! !

هذا هو الوصف الصحيح للتركة القاتلة التى سيخلفها بنو مروان للرجل الصالح « عمر بن عبد العزيز » . .

القتل ، والقتل ، والقتل ، حتى تمتلىء الأرض أشلاء ودماء . . ! !

ولقد يُقال : إن هذه القسوة ، بل هذا السعار الدموى ، إنما فرضته ظروف التمرد والمقاومة المسلحة التى جُوبِهَتْ بها الدولة الأموية طوال عهدها ذاك . .

بيد أنه أصح من هذا وأصدق ، القول بأن هذا السُّعار المتوحش هو الذى أجّجَ نار ذلك التمرد ونشَرلهَبَه فى كل مكان .

ولقد شهد شاهد من أهلها بوحشية الطغيان الذى ميَّز ذلك الميراث الرهيب . .

ذلكم هو « عبد الملك بن مروان » نفسه ، الذى راح يردد فى مرض موته كلمات الندم هذه :

« ماذا سأقول يوم المسألة عن أمر الحجاج » ؟ ؟

بل لقد هَمَّ ذات يوم أن يعزله ، وكتب إليه كتاباً مملوءاً بقوارع القول ، ومختوماً بهذه العبارة :

« . . فاعتزل عمل أمير المؤمنين ،واظعَنْ عنه باللعنة المستحقَّة ، والعقوبة الناهِكة » . . ! !

لكنه عاد فاستبقاه خوفاً على مُلكه وسلطانه . . ! !

ولم يكن سفك الدماء المظهر الوحيد لتلك القسوة . . بل كان هناك إذلال الناس بغير حق . . فالمَوالى ، وهم المسلمون عن غير العرب ، والذين يعطيهم الإسلام كل ما للمسلم من حق ، راح بنو مروان يحرمونهم حقَّهم فى بيت المال . ويُحرِّمون عليهم وظائف الدولة ، ويَفرضون عليهم الجزية بحجة أنهم دخلوا الإسلام تهرباً من دفعها . . ! !

مع أنهم قد نبغ من صفوفهم الكثرة الكاثرة من علماء الإسلام وأئمته وعُبَّاده ونُسَّاكه . . .

كما كان هناك إغراء الناس بعضهم ببعض ، وذلك أيضاً بتقسيمهم الأمةَ إلى عرب ، ومَوال . . وإحيائهم العصبية القَبَلية التى بدأها معاوية مع المُضَرِّيين ، والقَيسِيين ، واليمانيين . . !

* * *

هذا عن القسوة . . .

* فأما الفساد فقد طمَر كل شيء فى الدولة ، وفى الأمة . . خربت الذمم ، فراح كل قادر على النهب ، ينتهب ما تصل إليه يداه .

وغابت الأخلاق ، فشاع الترف والانحلال . .

ووراء الفساد سار الخراب ، فأخذت الأزمات المالية بخناق الدولة ، ومُحِق إنتاجها ، حتى إن العراق وهو أغنى أقاليمها يومئذ لم يكن يُغِلّ فى عهد الحجاج أكثر من خمسة وعشرين ألف درهم ، وهو الذى كانت غلّته من قبل ، وحتى عهد معاوية تبلغ مائة وعشرين مليوناً من الدراهم . . هذا مع أن « الحجاج » لم تُعرَف عنه خيانة ولا إثراء غير مشروع ، لكنها حروبه التى كانت تُوَلِّدها قسوته ، وكذلك إسرافه فى اصطناع العملاء والإغداق عليهم بغير حساب ، والقتل الذى أجهز على الجموع العاملة ، فى الزراعة ، والتجارة ، والحِرَفِ الأخرى . . . ! !

* ولقد وَاكبَ هذه القسوة وهذا الفساد تزييف كامل لِقِيَمِ الدين وقِيَم الحياة . .

وحسبنا لهذا التزييف المَهين مثلا . أن نرى منابر المساجد فى كل

الأقطار الإسلامية الرازحة تحت حكم الأمويين ، يُلْعَنُ من فوقها بطل الإسلام العظيم وابنه البارّ ، وإمامه الأوّاب « على بن أبى طالب » ! !

أجل . . يُفرض على الخطباء أن يلعنوه . . ومتى . . ؟ فى خطبة الجمعة التى يَستهلّونها قائلين : « اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد » . . آل محمد الذين يأخذ « على » فيهم مكان الدُّرَّة الفريدة فى العِقد المنظوم . . . ! ! !
أهناك تزييف للقِيَم ، بل إلغاء للمنطق وكرامة العقل أكثر من هذا ...؟؟! !

على أن هذا التزييف للحق وللحقيقة ، قام على أكتاف الشعر . والشعراء الذين تولّوا كِبْره ، واحتملوا وِزره . . ولعل هذا يُفسّر لنا الموقف الذى سيتخذه منهم « عمر بن عبد العزيز » حين يحمل مسئولية الخلافة ، فلسوف نراه يطردهم عن بابه ، ويحرمهم العطاء الغَدَق الذى كانوا يتقاضونه من أموال المسلمين ثمناً لكذبهم ونفاقهم . .

لقد كان لكل بلاط شعراؤه . . ولكل وال وأمير مَادِحُوه . .

ولقد أوضحنا على صفحات سابقة ، كيف كان الشعر ثقافة العصر ولُغتَه ، وإلى أى حد كان شغف الناس وإقبالهم عليه عظيماً .

ومن ثمَّ ، فإن الخليفة الذى كان يريد أن يُجرِّع الأمة أكذوبة أو يُنْسيها حقّاً ، لم يكن يجد وسيلة لذلك أفضل من الشعر .

وإنّ رجلا كمعاوية فى دهائه العظيم ، لا يجد فى ذلك الدهاء غناء عن الشعرحين همَّ بأخذ البيعة ليزيد ، فأوحى لشاعره الخاص أن يُعدّ قصيدة لهذا الغرض ، ينشدها فى جموع الناس الذين سيحشدهم معاوية ، فى ميقات معلوم .

وفى ذلك الميقات ، يجتمع وجهاء الشام فى قصر الخليفة . وهم لا يعرفون لماذا دُعوا . . ؟ ولا لماذا اجتمعوا . . ؟ ويقف شاعر معاوية ؛ ليقول :

ألا ليت شعرى ما يقـول ابن عـــامر
ومـــروانُ ، أم ماذا يقول سعيـــد
بَنِي خُـــلفاء الله مهـلا ، فإنمـــا
يُبَـــوِّئُهـــا الرحمن حيث يريد
إذَا المنبر الغربَى خلاَّه ربُّه فإن أمـــير المؤمنين « يزيد »

ولا يكاد يفرغ من إلقاء قصيدته ، حتى يتظاهر معاوية الداهية بأنه فوجىء بما سمع ، فيفرك كفيه ، ويقول فى مكر شديد وهو يوجه الحديث إلى شاعره .

« سننظر فيما قلت ، ونستخير الله ! ! »

* * *

وحين يحاول « عبد الملك بن مروان » تبرير مذابح وُلاته وقواده ضد الشِّيعَة ، والخوارج ، وأنصار عبد الله بن الزبير ، يستنجد بشاعره « جرير » .

لولا الخليفة ، والقرآن يقرؤه ما قام للناس أحكام ولا جُمَعُ
أنت الأمين ، أمين الله لا سَرف فيما وليتَ ولا هيَّابة خَـرِع
يا آل مروانَ إن الله فضلكم فضلا عظيماً على مَن دِينُهُ البِدعُ

وهكذا تنقلب الأوضاع . كما يريد شيطان جرير . . فعبد الملك ابن مروان إمام الهدى ، وعبد الله بن الزبير [دينهُ بِدَع ! ! !] .

* * *

وحين يرث الوليد أباه فى المُلك ، يهتف بالشعر ليشد أزره ، وليُجرِّع الناسَ سلطانه ، فيتقدم « جرير » أيضاً .

إن الوليد هو الإمام المصطفى   بالنصر هُـزَّ لواؤه والمغنِم
ذو العرش قدَّرَ أن تكون خليفة   مُلِّكتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

وهكذا صار الوليد إماماً مصطفى ، وصارت خلافته قدَراً من الله ونعمة ورحمة ! !

* * *

وكما اعتمد الخلفاء على الشعر فى ترويج باطلهم والتمكين لأنفسهم ، راح وُلاتُهم وقادتهم يُحاكونهم ويقلدونهم .

فزياد بن أبيه يتوجه شاعره بالقصائد الكثيرة ، حيث يقول فى بعضها :

تقاسَمتِ الرجال به هــواها   فما تُخْفى ضَغائنَها الصدور
فلمــا قام سيف الله فيهم   « زياد » ، قام أبلــج مستنير

والحجاج ، هل ينسى نصيبه الأوفى فى هذه الولائم الباذخة الكاذبة ؟؟.
إنه يدرك أن جرائمه تتعاظم كل دِثار يُغطيها ويُخفيها . . هنالك يلجأ إلى بَطلَيِ الثالوث الأموى . جرير ، والفرزدق . .

[فهذا جرير يُجرِّع الناس قوله :

إن ابن يوسف فاعلموا وتيقَّنـوا   ماضى البصيرة واضح المنهاج

وينافسه الفرزدق الذى يكتشف للحجاج من المناقب مالا يعرفه الحجاج عن نفسه ، ولا يُصدقه . . ! !

ولم أرَ كالحجاج عوناً على التُّقى   ولا طالبــاً يوماً طريدة نابل
بسيف به لله يضرب من عصى   على قِصر الأعنـاق فوق الكواهل

وتتفتح شهية الحجاج . فلا يشبعه زيف الفرزدق وجرير ، فيهتف بأعشى همدان الذى يتقدم بدوره ليجعل منه قديساً ومُنقذاً . . ! !

أبى الله إلا أن يتمم نـــوره ويطفىء نار الفاسقين فتخمدا
ويـــنزل ذلا بالعـــراق وأهـــله لِمَا نقضوا العهد الوثيق المؤكَّدا
فقتـــلاهمو قتلىَ ضـــلال وفتنة وحيُّهمـــو أمسى ذليلا مُطرَّدا

* * *

هكذا استُخدم الشعر أسوأ استخدام لتزييف الصدق والخير ولطمس الحقيقة فى وجدان الناس ووعيهم ، ولإثارة البلبلة فى خواطرهم ، وتوهين علاقاتهم بالقيم والأخلاق .

فماذا يربط الناس بالقِيم بعد . . حين يرون قواد الوليد بن عبد الملك . يملأون الأرض دماً وعذاباً ، ثم تتردد فى المحافل قصيدة شاعره « عدى ابن الرقاع » :

صـــلى الذى الصـــلوات الطيبـــاتُ له
والمؤمنـــون إذا مـــا جمَّعـــوا الجُمَعـــا
إن الوليـــد أمـــير المـــؤمنين له
مُلْكٌ عليه أعـــان الله فارتفعـــا

وماذا يربط الناسَ بالقِيم حين يرون خليفتهم — عبد الملك بن مروان — يصطفى لنفسه الأخطل ، وهو يذكُر هجاءه المُقذع السافل للأنصار الذين بَوَّأهم القرآن والرسول مكاناً عليًّا . . ؟؟

لقد فقد الناس إيمانهم بأشياء كثيرة ، ووقعوا فى تيهٍ مظلم بين ما يبصرون وما يسمعون ، وتحطمت أعصابهم تحت وطأة الكذب ، والزيف ؛ والبهتان .

لقد رأوا الأبرار يُذَبَّحون ويُقَتَّلون والسِّفلة يرتفعون ! !

وتاهَتْ فى الزحام أصوات القِلَّة المؤمنة الورِعة – أمثال « الحسن البصرى » وإخوانه ؛ ففقدت العقيدة سلطانها ، وعاد الإسلام غريباً ؛ أو كالغريب . . ! !

وكما كان « الحُنَفاء » فى الجاهلية يُقلِّبون وجوههم فى السماء ويَهيمون بين الجبال باحثين عن النبى المنتظر ، يخرجهم من الظلمات إلى النور – راح الحُنَفاء ؛ والمظلومون ؛ والمقهورون فى ذلك العهد الأموى يتطلعون إلى السماء فى انتظار النجم الذى يُجدد الله به دينه . . والذى يردُّ للخلافة كرامتها وَقدرَها ، ويضع عن الناس إِصْرَهُم ، والأغلال التى كانت عليهم . .

صحيح أن التركة قاتلة ؛ والميراث رهيب ؛ ولكن عونَ الله واصطفاءه كافيان لجعل العُسْرِ يُسراً . . .

* * *

لقد كان الأمر بحاجة إلى معجزة . .

ويَمينُ الله مَلْآى بالمعجزات . .

أفما آن للمتعَبين أن يظفروا منها بواحدة..؟؟

بلى ؛ آن . .

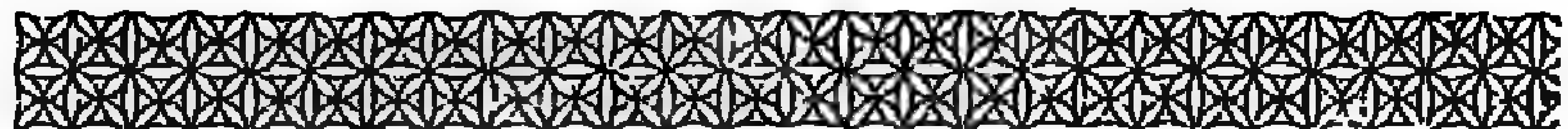
وإن رحمة الله لَواسعة . .

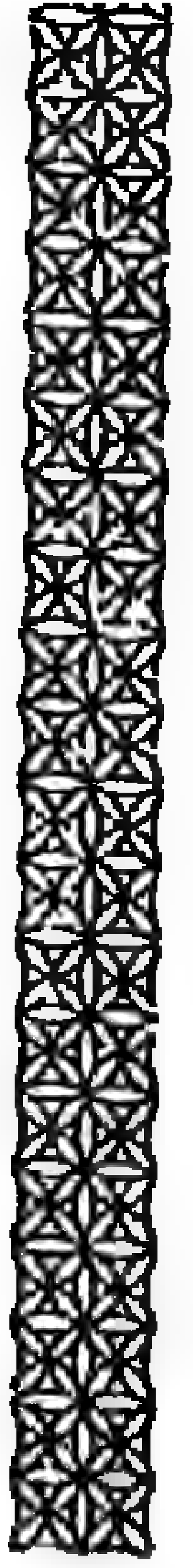
وإن عطاءه لجَزيل . .

الفصل الخامس

البُشرى

[والله لأعقِدنّ عقداً ،
لا يكون للشيطان فيه نصيب]..!





ونعود من جديد لصحبة الرجل الصالح – عمر بن عبد العزيز – . . لِنصاحب الجهد الخارق الذى سيكون على البطل أن يبذله حتى يجعل من الظلمات نوراً . .

ها هى ذى الخلافة تقترب منه . .

أتراه يطمع فيها ، أو يريدها . . ؟

كلا . إنه ليس له فيها مطمع ، فسليمان بن عبد الملك كان له أولاده . . ومن عادة خلفاء بنى أمية إيثار أولادهم بالاستخلاف .

فعَل ذلك « معاوية » حين جعل الحكم ليزيد . . وفعله « يزيد » حين استخلف معاوية الثانى . . ثم فعله مروان حين استخلف ولده « عبد الملك » ، وفعله عبد الملك حين نَحَّى أخاه « عبد العزيز » ، وأخذ البيعة لولده الوليد . .

كذلك لم يكن يريد الخلافة ، إذ كانت بما تورطت فيه ، قد صارت عبئاً مُبهظاً على كل ذى تُقًى وضمير . . وكانت قَداسة روحه التوّاقة إلى مرضاة ربها قد أخذت تنأى به شيئاً فشيئاً عن كل مغانم الحياة وزخرفها .

وكان ثَمّةَ حادث وقع فى أثناء ولايته على الحجاز ، ترك فى نفسه فزعاً شديداً من السلطة والسلطان ، وعاش عمره كله يُغَصّ بمرارته ، ويعجب كيف غُلِب فيه على أمره وتُقاه ! !

أما الحادث ، فخلاصته أنه تلقى كتاباً من الخليفة الوليد يتهم فيه « خُبَيْب بن عبد الله بن الزبير » بالتحريض على الأمويين والتشهير بهم ، ويأمره بضربه . .

وقام « عمر » بضرب خبيب ضرباً أفضى إلى موته .

وحين أبلغوا« عمر » نبأ موته ، نزل الخبر عليه كالصاعقة بل كأنها السماء انفطَرت ، والكواكب انتثرت ، والقيامة قامت . . ! !

وغشّاه الحادث بحزن قاتل ، فأغلق على نفسه باب داره سبعين يوماً – لاَبِساً مُسوحاً سُوداً ، ضارعاً إلى الله أن يغفر له ويعفو عنه . .

وكشف له هذا الحادث – كما قلنا – عن خطر السلطة والإمارة ، وتذكر قول الرسول عنها .

« إنها نِعْمَتِ المرضعة »

« وبِئست الفاطمة » ! ! !

وقوله عليه السلام :

« إنها فى الدنيا إمارة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلاّ من أخذها بحقها ، وأدّى الذى عليه فيها » . . ! !

رأى كيف وهو يتحرّى العدل والرحمة أعظم التحرّى ، قد ورطته السلطة فى بعض آثامها . .

ولسوف يقضى العمر كله يرزح تحت وقع الندم ، لا تُزايل خيالَه صورة ضحيته ، حتى حين يصير خليفة للمسلمين ، ويأتى من معجزات

العدل والورع والتُّقَى ما يبدو أبعد من الأساطير . . حتى حينذاك ، لا ينسى ذلك الحادث الوحيد الذى وقع ضد إرادته وضد طبيعته . .

أجل . . سنراه وهو خليفة يطيل البكاء ، فيقول له حَوارِيُّوه المقربون :

فيم بكاؤك . وقد وفقك الله لعمل أهل الجنة . . . ؟

فتزداد دموعه انهماراً ويقول :

« وكيف بخُبَيْب ؟ ؟ وكيف بِخُبيب ؟ ؟ »

ثم يصيح كالثَّكْلَى :

« إن نجوتُ من خُبيب ، فأنا بخير » . . ! !

لم يكن إذن يطمع فى الخلافة ولا يريدها .

ولقد آثر أن يحيا مع نفسه يزودها بزاد التقوى ، ويهيئها للقاء الله يوم تلقاه على خير حال ، وأهدَى سبيل . .

وفى هذه الفترة من حياته ، نجد نفسه التوَّاقة تغير مَسارها فتأخذ فى العزوف شيئاً فشيئاً عن الإغراق فى التأنق ، وتتخفف من المناعم والطيبات ، وتَشْغَفُ بالعزلة والتأمل العميق . . ثم نراه يحصر علاقاته المحدودة فى نفرٍ كريم من العُبَّاد والعلماء والزهاد .

وخلال ذلك تتوثق صلته بـ « رجاء بن حَيْوَة » وكان من علماء التابعين وفُضلائهم ، وكان موضع ثقة الخلفاء الأمويين . عاش معهم دون أن يفقد فضائل نفسه . .

و « رجاء بن حيْوة » شخصية جليلة ، لانملك ونحن نتحدث عن أمير المؤمنين « عمر بن عبد العزيز » إلا أن ننحنى له تحية وتقديراً ؛ فلقد اختارته المقادير — كما سنرى فيما بعد — ليكون السبب الأول والأوثق فى إفضاء الخلافة لابن عبد العزيز حيث سترى الدنيا منه معجزة الحكم الورِع

العادل الطَّهور . . ! !

فسلام الله ورحمته عليك يا رَجاء . .

* * *

إن العزلة التى أخذت نفس – عمر – تجنح لها ، لم تَسْلَخه عن عالمه ولم تُنْسِه إحساسه بمشاكل دولته وأمته ، ولم تحمله على نفض يديه من مسئولية التحذير .

ففى هذه الفترة نراه ومعه شيخه وصديقه « رجاء بن حيوة » لا يَكُفَّان عن قرْع أجراس الخطر ، وإسداء النصح للخليفة سليمان .

لقد كان غياب العدل والرحمة عن دولة الأمويين ، أكثر ما ينغّص نفس « عمر » . .

من أجل ذلك صارت كلمتى « العدل والرحمة » تسبيحة عَذْبة على لسانه ، يلهج بها دوماً ، ويَصُبُّها فى أسماع الخليفة صَبًّا . .

* * *

وذات يوم ؛ طاف بالخليفة « سليمان » طائف المرض . . وكان قبل مرضه قد عقد ولاية عهده لولده « أيوب » ولكن « أيوب » كما يحدثنا ابن عبد الحكم مات ، فصارت ولاية العهد شاغرة . .

فلما مرض « سليمان » وشعر أنه مرض الموت ، شغله أمر الخلافة .

«وتفرَّس وجوه بنيه ، فألفاهم صغاراً . فأمر أن يُلبسوهم أَقمِصة الخلافة وأردِيتها ، ويقلدوهم السيوف ليرى – على الطبيعة – كيف يكونون . . ؟ !

وجىء بهم إليه مُزركشين بثياب الخلافة ، مُتوشِّحين سيوفها ، فوجدهم

لا يملأون جانب العين . . فقال آسفاً :

إن بَنِيَّ صِبية صِغار أفلح من كان له كِبار .

وخلا بمشيره الأمين « رجاء بن حَيْوة » ، وراح يقلب معه وجوه النظر ، فقال له رجاء :

«إن مما يحفظك فى قبرك ، ويشفع لك فى أخراك ، أن تستخلف على المسلمين رجلا صالحاً » . .

قال سليمان : ومن عساه يكون . . ؟

وأجاب رجاء : [عمر بن عبد العزيز] . . ! !

وتلقى « سليمان » مَشورة رجاء كالبُشرى ، فقد صادفتْ هوى فى نفسه ، بل صادفت عزماً كان يضمره ويُخفيه . .

وهتف سليمان بعبارته المأثورة الباهرة :

« والله ، لأعْقِدَنَّ لهم عقداً لا يكون للشيطان فيه نصيب » ! ! !

لكن كيف السبيل إلى ذلك وإخوة سليمان قابعون كالنمور ، واقفون للمنصب بالمرصاد . . ؟

هنالك اهتدى « سليمان » إلى الحل ، وهو أن يوصِى لإخوته بولاية العهد بعد « عمر بن عبد العزيز » . .

وسارع « رجاء » لإنجاز الخُطَّة . . وكتب مع الخليفة وصيته .

« بسم الله الرحمن الرحيم . .

« هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، لعمر بن عبد العزيز . .

« إنى قد ولَّيته الخلافة من بعدى . . ومن بعده . . يزيد ابن عبد الملك . .

« فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله . .

« ولا تختلفوا فيُطمعَ فيكم . . »

هكذا تمت الخطوة الأولى نحو استخلاف « عمر » وسُطِّر العقد الذى لن يكون للشيطان فيه نصيب ! !

* * *

وسارع « رجاء » إلى الخطوة التالية ، فدعا الأمراء الأمويين لمقابلة الخليفة ، وكان كتاب الخليفة قد طُوى وخُتِم ، وتَواصَى الخليفة ورجاء ألا يعلم بمضمونه أحد ما دام الخليفة حيًّا . .

واحتشد الأمراء حوله ، وأمرهم « سليمان » أن يبايعوا من استخلَفه واستودَع الوثيقة اسمه . . وحاول بعضهم أن يعرف قبل أن يُبايع ، لمن أوصى الخليفة ، فزجره سليمان ؛ فبايعوا جميعاً ، ثم انصرفوا يتبادلون الحدْس والظنون . . .

* * *

أين كان « ابن عبد العزيز » والأمر يُقضَى ويُبرَم . . ؟ ؟

لقد كان يعود « سليمان » يوماً ، فاستقبله قائلا :

— « يا عمر » . .

« ما أهمَّنى أمر قط ، إلا خَطَرْتَ فيه ببالى » . .

ومن ذلك اليوم ، وهو يُحِسّ شعوراً مُبهماً فى نفسه . شعور التوجس من أن يصنعها سليمان من وراء ظهره ، ويَرزَأه بمسئوليات الخلافة . .

هنا لك ، يسارع إلى حيث يلتقى برجاء بن حَيْوة ، ويقول له متوسلا :

« يا رجاء . .

« إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه إلا سيَعْهَد . .

« وإنى أناشدك الله إذا ذكَرَنى بشىء من ذلك أن تصرفه عنى . .

وإن لم يذكرنى ألاّ تذكُرنى له فى هذا الأمر أبداً » . .

وكان علَى « رجاء » أن يستخدم ذكاءه فى انتزاع هذا الإحساس من نفس « عمر » ، فهو يعلم أنه إذا تحول شعوره هذا إلى مجرد ظن قوىّ بأن الخليفة عهد إليه ، فسيسعى إلى الخليفة معتذراً ومُتنصِّلا . . بل ربما غادر البلاد كلها إلى حيث لا يُعرف له مقر أو مقام . . .

من أجل ذلك أدّى « رجاء » دوره بدهاء عظيم حين أجاب « عمر » قائلا :

« لقد ذهب ظنك مذهباً بعيداً ، ما كنتُ أَحسَبُك تذهب إليه . .

« أتظن بنى عبد الملك يُدخلونك فى أمورهم » ؟ !

وتَهلَّلَ وجه عمر . . وانصرف عن رجاء . . الذى تهلَّل وجهه هو الآخر ، وراح يفرك كفيه مغتبطاً مسروراً ، فقد ربح الجولة الأولى مع الهارب من الملك والمجد والخلافة . . ! ! !

* * *

وذهب إليه « هشام بن عبد الملك » أخو الخليفة سليمان ؛ وكان يتطلع إلى المنصب فى رغبة ضارية . .

قال لرجاء : [يا رجاء . إن لى معك حُرمة ومَودّة ، فأنبئنى بهذا الأمر . إن كان صائراً إلىَّ علمت . . وإن كان لغيرى تكلمت . . ولك علىَّ العهد ألا أذكر من ذلك شيئاً أبداً] . .

وكان جواب الشيخ الجليل له : أن الخليفة قد ائتمنه وأخذ عليه العهد ألا يتكلم . .

وانصرف عنه « هشام » حَيرانَ أَسِفاً ، يسائل نفسه :

« إذا كنت قد نُحِّيتُ عنها . فإلى من يا ترى ؟ وهل ستخرج الخلافة من بنى عبد الملك ؟ . . ؟؟ » .

* * *

ويذهب « رجاء » ذات يوم ليعود الخليفة ، فيجده فى اللحظات الأخيرة من حياته ، فيجلس إلى جواره حتى تفيض روحه فيُسَجِّيه . . ويتكتم النبأ فى ثبات وطيد ، مُهَيِّئاً الظروف لإعلان الخليفة الجديد ، زافًّا مع إعلانه هذا أعظم البشريات لدين الله ؛ ولدنيا الناس . . . ! ! !

ولْنُصْغِ إليه يكمل النبأ ويصف المشهد :

« . . . وخرجت ؛ فأرسلت إلى كعب بن حامد العبسى — رئيس الشرطة — ليجمع أهل بيت أمير المؤمنين . .

« فاجتمعوا فى مسجد « دابِق » فقلت لهم : بايعوا . .

« قالوا : قد بايَعْنا مرة ؛ أنبايع أخرى . . ؟ ؟

« قلت لهم : هذه رغبة أمير المؤمنين ؛ فبايعوا على مَن عَهِد إليه فى هذا الكتاب المختوم . .

« فبايَعوا رجُلا ؛ رجلا . .

« فلما بايعوا رأيت أنى قد أحكمتُ الأمر ؛ فقلت لهم : إن الخليفة قد مات . .

« ومضيت أقرأ عليهم الكتاب » . . . !

* * *

إنه ما دام النظام المعمول به فى منهج الأمويين هو الاستخلاف ؛ فإن العمل الذى أنجزه « رجاء بن حَيوة » لعَظيم جدّ عظيم . فالرجل الذى اختير للخلافة هذه المرة ؛ ليس ثمة من طرازه سِواه . . . إنه رجل . لو أن أروع ما عرف التاريخ الإنسانى كله من ديمقراطية وشُورَى أراد أن يختار له نظيراً لأعياه وجودُ النظير . . ! !

ومع ذلك ، فسوف نراه عما قريب ؛ ينتهز أول فرصة مُواتية ليحاول خَلْع الخلافة من عُنُقِه ، وليرد الأمر إلى المسلمين يختارونَ مَن يشاءون . . ! !

* * *

رأينا كيف بايعه الأمراء الأمويون بعد أن فاجأهم كتاب الخليفة الذى قرأه عليهم رجاء . .

وكان هشام . . فيمن بايع على مضَض . . إذ تقدم من « عمر » وهو يقول :

[إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذْ نُحِّيَتْ عنى : !]

فأجابه « عمر » :

« بل ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ صارتْ إلى ، وأنا لها كارِه » ! ! .

ولم يكد يُفيق من غمرة المفاجأة ، حتى راح يَرتجف كعصفور غطَّته الثلوج ، واستقبل « رجاء بن حيوة » يقول له فى عتاب :

« ألم أُناشِدْك الله ، يا رجاء » . . ؟ !

ثم سار إلى الخليفة المسجّى ؛ فصلّى عليه ، وشيّعوه إلى مَثواه . .

وعاد يُعزِّى أهل بيته فيه ، ويتلقى فيه العزاء .

وفى الغَداة ، وكان النبأ قد طار إلى كثير من بلاد الشام حيث سارع

خلْق كثيرون إلى « دابق » . . دخل أمير المؤمنين المسجد فإذا هو غاصٌّ بحشود هائلة من الوافدين ، فرأى الخليفة أنها فرصته للخلاص من المنصب الكبير قبل أن يتشبث بكاهله .

وفجأة صعد المنبر ، وخطب الناس :

« . . أما بعد ، فقد ابتُليت بهذا الأمر على غير رأى منى فيه ، وعلى غير مَشورة من المسلمين . .

« وإنى أخلع بيعةَ من بايعنى فاختاروا لأنفسكم » . . ! !

ولعله قدَّر أن المفاجأة ستُذهِل الناس ، فتعقِد ألسنتهم عن الكلام ولو لحظات . يستطيع هو خلالها أن ينجو بنفسه ، مبرراً صمتهم بقبول تنازله . . !

بيد أنه لم يكد يفرغ من نُطق هذه العبارة : [فاختاروا لأنفسكم] حتى كان المسجد يهتز بدَمْدَمَة رهيبة ، أطلقتها الحناجر الصائحة الصادحة :

« . . بلْ إياك نختار ، يا أمير المؤمنين » . . ! !

واندفعت الجموع التى بداخل المسجد ، والجموع التى كانت خارجه ، صَوب المنبر الذى كادت تَصهره أنفاسهم الحارة . .

وهبط دَرَجَ المنبر ، محاولاً أن يجد له وسط الجموع طريقاً .

كانت أصواتهم الصادعة المُبايعة ، قد حولت المناسبة إلى مِهرجان . .

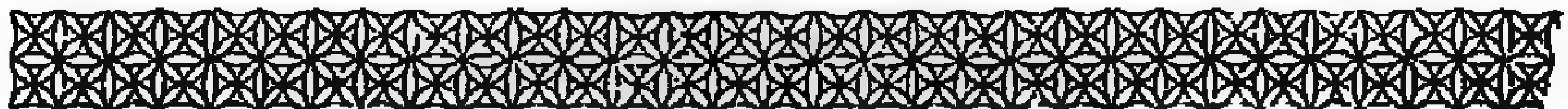
وراحت أذرعتهم المشرعة تُلوِّح وتَخفُق ، كأنها الرايات الظافرة ، وعيونهم المغتبطة ، تبرق بفرحة العمر وبهجة الحياة . .

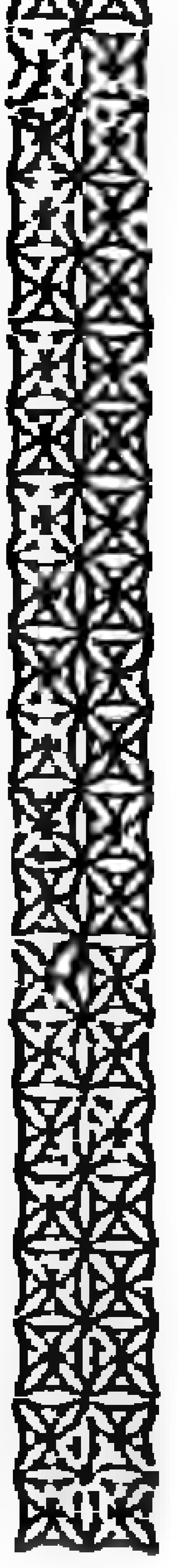
وراح – هو – يُجهش بالبكاء . . . ! !

الفصل السادس

المعجـــزة

. . [بل جَزَى الله الإسلامَ عني خيراً] ! !





نحن الآن أمام رجل جديد ، مُغايرٍ تماماً لهذا الذى كنا معه عَبْرَ الصفحات السالفة من الكتاب . .

فكيف ظهر هذا الرجل فجأة . . ؟ !

كيف بَزَغ على نحوٍ مُباغِتٍ ، ومن أين جاء . . ؟ ؟

* أكان القدَر يصنعه على عينيه . ليقدم به مُحيًّا باهراً للفضيلة والخير ، فى دنيا كادت تُجدب من الفضيلة والخير . . ؟

* أكان روح الإسلام يعمل فى مُثابرة غير منظورة ؛ ليثبت أنه لا يزال يُنجب من أبنائه البررَة ورجاله الشاهقين المعجِزين ، ما حَسِب الناس أن زمانهم ولَّى ودرس . . ؟

* أكان الضمير الإنسانى قد أقلقه غياب القدوة الصالحة ، وإجداب الوجدان البشرى منها ، فراح يبحث عن أقوى الناس ليحقق به وفيه ظُهورَها وتَجلِّيها ، ولِيُذكِّر الطموح البشرى بطريق القداسة . . ؟

* أكانت الحقيقة قد سَئِمت عبقرية التنظيم والمعرفة والإدارة ، تعمل

وحدها ، فراحت تهيب بعبقرية الروح كى تملأ الفراغ الموحِش ، وتروى برهبانيتها الناشطة وبتبتُّلِها النبيل عقلَ الحياة . . ؟

* أكانت فضائله الكامنة تنمو داخل نفسه نموًّا غير منظور ، وتحتشد فى تركيزٍ هائل ، لِتفجِّر فى ميقات معلوم طاقتها الجبارة . . ؟

ألا إن ذلك كلَّه قد كان . .

وبهذا كله ، ومن أجل هذا كله ، جاء إلى الحياة هذا الرجل الجديد ، والزائر الجليل – عُمر الخليفة – فى رحلة سريعة لن تلبث إلا عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! ! !

* * *

ولو أن هذا الخليفة كان قبل الخلافة واحداً من عامة الناس . .

ولو أن البيئة التى قضى فيها طفولته وشبابه ورجولته كانت مألوفة بين البيئات . .

ولو أن الزمن الذى استغرقه انقلابه الروحى المذهل ، امتدَّ على طريقِ تطورِ طويل أو حتى قصير . .

ولو أن السبب المباشر لهذا الانقلاب كان شيئاً آخر غير المنصب الذى يُشعِل الطموح ويَفتح الشهيَّات.

لو أن ذلك كان كذلك ، لَتيسَّر لنا تصور الإعجاز الذى حدث . .

أمَا والأمر مختلف عن هذا كله ، فإن ذلك الإعجاز يبقى – وإلى الأبد – سرًّا جليلا يتحدَّى كل إدراك . . !

* فبطل الانقلاب الروحى الذى سنطالع الآن صورته الخارقة ؛ لم يكن من أوساط الناس فى معيشته ورزقه ؛ فيُقال : إن زهده وورعه

كانا امتداداً لمعاناةِ تجاربه . . بل هو منذ مولده إلى استخلافه ربيب الملك ؛ وحفيد المجد ، وابن القصور الناعمة ، والمباهج الهاطلة . . ! !

* وهو لم يكن حين تَسنَّم الخلافة شيخاً تقدمت به السن ، فيُقال : إن استغناءه عن نفوذها وجاهها ونعيمها إنما هو مظهر لحياة شبعت من النعيم والجاه حتى بَشِمَتْ . وأعراض شيخوخه وَلّى عنها ولَعُ الشباب وطموحه . . بل إن البطل والقِدِّيس كان يوم استخلافه فى رائعة الرجولة والاقتدار والطموح . . لقد كان فى الخامسة والثلاثين من عمره . . . ! !

* وهو لم يستغرق فى انقلابه الروحى الهائل والمفاجىء سنين ولا شهوراً ، بل جاء كما سنرى ابن اللحظة التى اختير فيها أميراً للمؤمنين . . ! !

* ولم يكن وراء هذا الانقلاب الروحى يأس من غاية أرهقَتْ طموحه . ولا هزيمة فى الحياة راح يلتمِس عِوضاً عنها وبديلا لها ، ولا ردٌّ فعل لإفراط قديم فى شهوات النفس ، ولذاذات الجسد ، ولا نوبة صلاح وتُقىً دفعت به إلى صوامع العابدين ، ولا نزعة تشاؤم ترى العدَمَ وراء الأشياء ؛ فتلوذ باللاَّمُبالاة ، صائحة : الكُلُّ باطل . .

بل كان وراء انقلابه الروحى شىء هو أبعد ما يكون عن النتائج التى أفضى إليها . . أجلْ ، كان هناك منصب الخلافة « وصَوْلجان الملك لأَعظمِ ، وأقوى ، وأوسع امبراطوريات عصرها وزمانها . . ! ! !

وفى هذا – قبل أى اعتبار آخر – تتراءى قدَاسَةُ هذا الانقلاب المفاجىء الجليل ، وتتمثل المعجزة كلها . . ! !

* * *

ونحن نصف هذا الانقلاب ، بالمفاجىء ، لأنه كان كذلك فعلا

فمع أن حياة — عمر — كانت منذ طفولته طاهرة فاضلة نَزَّاعة إلى المزيد من الصلاح والتقى . .

ومع أنه بعد عزله عن ولاية الشام أيام الوليد بن عبد الملك عكَف على تنمية فضائله وتزكية نفسه ، وشرع يُخفف من غُلَواء تأنُّقه وتَنعُّمه . . فإنه لا هذا ولا ذاك ولا أضعافهما معهما لا شيء من هذا كله بقادر على إقناعنا بأنه كان مقدمة لذلك الانقلاب الفذّ الذى تفوّق حتى على ذاته ، والذى تقمَّص شخصية الخليفة فى اللحظة التى جرى فيها رِيقُه بالمَذاق الرهيب — لا الرَّطيب — لمسئولية الحكم والخلافة . . ! !

* * *

لا ريب فى أن اصطفاء الله وتوفيقَه ، يقفان قبل كل سبب ودافع وراء المعجزة . .

فالله سبحانه على كل شيء قدير . . وهو — سبحانه — أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم حيث يضع سِرَّه وبَركَته . .

لكنْ إذا ذهبنا نلتمس للمعجزة سبباً ودافعاً مما يدخل فى حَوْزَتنا ويُشكّل حياتنا ، كبشَرٍ مختارين ، ومسئولين . . نُفكّر ، ونُقدّر ، ونسعى ، ونختار ، ونريد ، فأين نجد هذا الدفع يا تُرى . . ؟ إنه — فى رأينا — مستقر فى معنى واحد ، ذلكم هو طريقة ابن عبد العزيز فى فهم « مسئولية الحكم » ، وإحساسه بها ، وتقديسه لها . .

فكل شيء داخِلَ شخصيته ، وخارج شخصيته ، يتغير فى إنجاز خاطف تحت ضغط هذه المسئولية وحدها . . ! !

و « هو » الآن . . ليس « هو » الذى كان . . ! !

والدولة ، والأمة ، والحياة كلها . تجاوز أوضاعها السابقة فى مثل لمح البصر ، إلى أوضاع أخرى تعكسها عظمة الخليفة وقَداسته . .

ثم إن ارتباط هذه المسئولية فى ضميره بالله ارتباطاً وثيقاً ومُباشِراً يدعوه أن يقهر الزمن لمشيئة التغيير . .

فهو لا يصبر يوماً ، ولا ساعة على خطأ قديم ، لأن الله سائله لماذا ترك هذا الخطأ ساعةً من نهار ؟ ولأنه لا يضمن لنفسه الحياة إلى الساعة التالية . .

ومن ثَمّ فلا وقت للإرجاء . . ! !

والآن ، فلننظر ! ! . . .

* * *

ها هو ذا يعود من دَفن سلَفِه « سليمان بن عبد الملك » فلا يكاد يستقر به المقام فى مجلس العزاء حتى يطلب إلى مولاه « مُزاحِم » أن يسارع إليه بقرطاس ، وقلم ، ودواة . .

ويقترب منه « رجاء بن حَيْوة » وقد رأى جسده ينتفض ، كأنّ به رعدة مرض ثقيل ، وينصحه بإرجاء ما يريد إنجازه الآن إلى غد ، حتى يستريح . .

لكنه يجيبه ، ودموعه تنثالُ من مآقِيه :

« لقد فَعلْتَها يا رجاء . . .

. . فَدعْنى أسْتَنْقِذُ نفسى من عذاب يوم عظيم ؟ ! !

إنها المسئولية الموصولة بالله ، وبما لله فى نفس عمر من عظمة ، ورهبة ، وجلال . .

أجل . . إنها هى ، لن تَدعَه ينعم ، ولن تتركه ينام . . ! !

ويجيء « مُزاحم » بالقرطاس ، وبالقلم ، وبالدواة . . ويختطفها الخليفة

منه فى لهفة من يختطف حياته ومصيره من فُوَّهة إعصار . . ويروح يكتب على عجل :

* إلى مسلمة بن عبد الملك ، ليعود بجيشه من القسطنطينية . .

* وإلى أسامة التنوخى . يخبره بعزله عن خَرَاج مصر ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

* وإلى يزيد بن أبى مسلم ، يخبره بعزله عن أفريقيا ، ويدعوه ليقدم حسابه . .

وأمر أن تُحمل الكتب فوراً إلى أصحابها . .

وبُهت الأمراء الأمويون لما رأوا . وتهامس بعضهم معلقاً على هذا المشهد الذى أثار عجبهم وحَنَقهم معاً ؛ فقال :

[إنه الولَع بالسلطان ، لا يَدعُه يصبر حتى الصباح] ! !

مساكين . . ! ! فقد كانوا أعجز من أن يبصروا رُوح القَداسة التى بدأت تعمل داخل ضمير الرجل الذى لم يجد فى منصب الخلافة الذى يتكالبون عليه سوى رُزْءٍ رهيب . . ! !

وإن عجلته الحازمة فى البدء بهذا الثالوث ، لتكشف لنا طرَفاً من ولائه الوثيق لمسئولية الحكم . ومنهجه فى تحمل هذه المسئولية . .

* فأما « مسلمة بن عبد الملك » فقد كان على رأس جيش كبير يحاصر القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية . . وكاد الحصار يُؤتى أكله ويفتح أبواب العاصمة ، لولا خدعة ورطه فيها القائد الرومانى « اليون » فردّت القوةَ عجزاً ، والنصر هزيمة . . وعلى الرغم من ضياع الفرصة ، وانقطاع خطوط التموين وتفشّى المرض والمجاعة فى الجيش ، فإن الخليفة السابق « سليمان بن عبد الملك » رفض أن يصدر أمره للجيش بالعودة ،

ربما تحت وطأة كبريائه الشخصي والقومي ؛ وربما أملا فى تحسُّن ظروفه وإمداده بقوات جديدة — وهكذا تُرك الجيش المتداعى فريسة للضياع . .

ولقد كان — عمر بن عبد العزيز — قبل استخلافه يتميَّز غيظاً من هذا الموقف ، ويُلح على الخليفة باستدعائه . ولكن لَا رأى لمن لا يُطاع . .

والآن ، وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يطيق صبراً ، ولا يُرجىء أمر الانسحاب إلى الصباح . بل يبدأ بإصداره وبإرسال الرّسُل به فى أولى ساعات خلافته ومسئوليته — هذه الأولى . .

* فأما الثانية ، وهى عزل أسامة التنوخى عن خراج مصر ؛ فقد كان أسامة هذا — كما يصفه ابن عبد الحكم — [غاشماً ، ظلوماً ، مسرفاً فى العقوبات بغير ما أنزل الله ؛ يقطع الأيدى ؛ ويملأ أجواف الدواب بأشلاء ضحاياه ؛ ثم يطرحها للتماسيح] ! ! !

أفهذا طراز يسكت عنه ابن عبد العزيز طَرْفة عين . . ؟ ؟

لطالما نصح الخليفة السابق بوجوب عزله . .

والآن وقد صار الأمر إليه ، فإنه لا يَدَعُه فى مقامه لحظة ، فقد يَبتُر فى هذه اللحظة يداً تجى يوم القيامة مُعلّقةً فى عُنق « عمر » — تقول : يارب : لقد قُطِعتُ بغياً وعُدواناً فى عهد هذا الخليفة . . ! !

* وأما الثالثة ، وهى عزل « يزيد بن أبى مسلم » عن أفريقية ، فقد كان هو الآخر طاغية متجبراً ، يعامل الناس بوحشية مسعورة ويتسلَّى برؤيتهم وهم يُعذَّبون ويذوقون نكالَه . . .

* * *

هكذا بدأ الخليفة عهده . . بالتغيير السريع الحاسم العميم الذى

يجب أن يتم على مستوى الدولة والأمة بنفس السرعة والشمول اللذين تم بهما الانقلاب الروحى داخل وجدانه وضميره .

لا مجال للتلكؤ ولا للإرجاء أمام عزيمة الرجل الذى صارت عيناه لا تكُفّان عن البكاء ، والذى لم يعد لسانه يَلهج بغير هذه الآية المُنذِرَة :

« إنى أخاف إنْ عَصيْتُ ربى عذَابَ يوم عظيم » ! !

وعصيان ربه – فى تقديره – يتمثل فى إرجاء التغيير ، بالقدر نفسه الذى يتمثل به فى إهمال التغيير . .

وكأنه كان يدرك بحاسَّته السادسة ، ببصيرته المضيئة ، أن حياته على جناحِ طائر ، وأنه لن يلبث بين الناس إلا قليلا ثم يلبى نداء ربه ، فراح يملأ اللحظة العابرة بجهاد أعوامٍ ثِقال . . ! !

* * *

والآن ، لِننظر مرة أخرى ! !

ها هو ذا فى اليوم التالى ، يتهيأ آخذاً طريقه إلى السرادق الذى جرت العادة بإقامته حيث يجرى فيه أول لقاء بين الخليفة الجديد وصفوة قومه . .

ولايكاد يضع قدميه على الطريق ، حتى يرى موكباً فخماً من الجياد المطهَّمة ، تتوسطها فرس زيِّنت كالعروس ، ليمتطى الخليفة ظهرها الباذخ . .

وفجأة تأخذه الرَّجْفة ، ويسأل مستنكراً :

– ماهذه ؟ ؟

فيجيبونه :

– هذه جياد لم تُركب قط ، تُعَدُّ لموكب كل خليفة جديد فينادى عمر :

– يامُزاحِم . . ضُمَّ هذه إلى بيت المال ! !

ويمضى على قدميه حتى يبلغ السرادق فإذا هو فِتنة ولا كإيوان كسرى . . فتعاوده الرَّجفة ، ويسأل :

– ماهذا . . ؟ ؟

فيجيبونه :

– إنه السرادق الذى يُعَد لاستقبال الخليفة الجديد فينادى :

– يامُزاحِم . . ضُمَّ هذا إلى بيت المال ! !

ويدعو بحصير فيفرشه على الأرض ثم يجلس فوقه فى غبطةِ قِدّيس ! !

ثم يُجاء بالأردية المزركشة ، والطَّيْلسَانات الفاخرَة ، فيسأل :

– وماهذه ؟ ؟

فيقولون :

– إنها ثياب الخِلافة ، يتحلَّى بها كل خليفة جديد . . فينادى :

– يامُزاحم . . وهذه أيضاً ضُمها إلى بيت المال ! !

ثم تُعرَض عليه الجوارى ، ليختار منهن وَصيفاتِ قصره . . وهُنا ينهض فَزِعاً . ويقبِل عليهن واحدة واحدة :

– من أَنتِ . . ؟ ولمن كُنتِ . . ؟ ومابلدك . . ؟ ؟

حتى إذا فرغ من سؤالهن جميعاً ، نادى :

* يامُزاحم . . تولَّ أمرهن جميعاً ، وأَرْجعْ كل واحدة منهن إلى أرضها وذويها . . ! !

ألا فلندَّخر الكثير من عجبنا ، ودَهَشِنا ، وانبهارنا ، فإننا مقبلون على عالَمٍ آهلٍ وحافل بمثل تلك المعجزات . . ! !

* * *

بعد قليل ، ينتقل أمير المؤمنين إلى « دمشق » عاصمة الخلافة الأموية .

ومن « دمشق » حيناً . . ومن « خُناصِرة » أحياناً سيباشر مسئوليات الدولة الطويلة العريضة التى أصبح مسئولاً عنها – والمعجزات التى ستشهدها أيامه المباركات ؛ سنراها ثمرة لأمرين التزم بهما فى إخباتٍ شديد :

أولهما : الولاء المطلق للدين . . .

ثانيهما : الولاء المطلق للأمة . . .

يُدَثِّر هذا الولاء وذاك ، خوفٌ بالغ من الله ، يكاد تتصدّع من مثله الجبال ! !

* فأما ولاؤه للدين ، فقد كان إيمانه بالإسلام عظيماً . كان يرى فيه مَفَاءَ نعمتِه وفِردوس حياته . .

يقول له بعض إخوانه ، وقد بهرهم عهده العظيم :

– جزاك الله عن الإسلام خيراً . . .

فإذا هو يجيب :

« بل جَزى الله الإسلام عنى خيراً » . . ! !

ولقد زاده إيماناً بعظمة دينه ، تلك التطبيقات الباهرة التى كشفت مقدرته فى بناء الدولة العادلة ، والأمة الفاضلة ، يوم كان يحمل رايته ذلك الرعيل الأول من أصحاب رسول الله . وعلى رأسهم أبو بكر الصديق . . والفاروق عمر . . .

ولقد قضى عمره منذ طفولته ملتزماً أوامر الدين وحدُوده ، لكنه اليوم وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالدين لم تعد علاقة المؤمن المطيع وحسب ، بل جاوزت ذلك إلى موقف الحارس والمنفِّذ . والمسئول عن

ترجمة حقيقة الإسلام ومبادئه إلى طريق عام ، تسير فيه الدولة والمجتمع . .

* وأما ولاؤه للأمة ، فهو فى الحقيقة امتداد لولائه للدين . فالدين بوصفه كلمة الله ، استوصَى أول ماستوصى بالإنسان . .

والإسلام خاصة يعطى أكثر اهتماماته لقضية الإنسان . . ! !

على أن الظروف التى وَلِىَ فيها « ابن عبدالعزيز » الخلافة ، كانت تعطى ولاءه لحقوق النّاس وَقوداً هائلاً من المظالم والمشكلات والأزمات التى خلفتها العهود الأموية السالفة .

لقد حدد ولاؤه هذا طبيعة مسئولياته وفلسفتها ، وراح يحَملها فى مزيج عجيب من الإرهاق والإشفاق . .

الإرهاق لنفسه ، حتى لايكاد يعطيها فرصة للتنفُّس . .

والإشفاق عليها أن يأتيها الموت قبل أن تفرغ من واجبها . . ! !

وإذا كانت الشهور التسعة والعشرون التى عاشها خليفة تُعتبر بالنسبة للتاريخ الإنسانى كله بمثابة لحظة . . فإن هذه اللحظة قد صارت من أعظم أزمان التاريخ تزكيةً للإنسان وتأثيراً فى الحقيقة إذ أعطت البشرية فى شتى عصورها وأديانها وأجناسها ، المثل على ماتستطيع الإرادة الإنسانية أن تحقق من قداسة ، وتصنع من إعجاز ، إذا جعلت الله رقيبَها ، والحقَّ كِتابَها . . ! !

* * *

لقد حرص « أمير المؤمنين » على أن يُدرك النّاسُ أنه لا يأتيهم بجديد من المبادئ والنظم . فكل ذلك فى قرآنهم ودينهم وتراث الرَّعيل الأول

الصالح من خلفاء رسولهم وأصحابه ، والتابعين لهم بإحسان . .

إنما هو يأتيهم بروح جديدة ، هى روح المسئولية الورعة الصادقة ، يُزكِّيها فهم سديد لجوهر الإسلام وأهداف شريعته .

وإذن . فإن علينا أن نَرْصُد مَسار علاقته بمسئولياته فى ثلاثة مطالع :

المطلع الأول – وضوح المسئولية فى وعيه . .

المطلع الثانى – استغراقه فيها . .

المطلع الثالث – إخلاصه لها . .

* فأما عن الأول ، فنحن نعلم أنه لكى تستغرق قضية ما إنساناً مّا ؛ استغراقَ إيمان لااستغراق بحث ، فإنها لابد أن تكون قد بلغت من الوضوح والإسفار فى تفكير صاحبها وشعوره المدى الذى يقهر كل غموض ، ويتخطى كل تساؤل . .

والقضية التى استغرقت – عمر بن عبد العزيز – كانت من هذا الطراز – فهى لاتستغرقه استغراق باحث يحاول التأكد من صحتها وصدقها . بل استغراق مؤمن مفعم باليقين . . ! !

فلننظر الآن مظاهر وضوحها لديه . . وإذا كانت كلماته وخطبه إنما تعبر تعبيراً مطلقاً عن حقيقة اتجاهاته ومقاصده ، فإنها إذن كفيلة بإعطائنا صورة هذا الوضوح . .

ولنبدأ معه بهذه الخطبة :

« . . لقد سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بَعده سُنَناً ، الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة لدين الله . ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا الركون لأمرٍ خالَفها . .

« من اهتدى بها ؛ فهو المهتد . .

« ومن استنصر بها ، فهو المنصور . .

« ومن تركها واتبع غيرَ سبيل المؤمنين وَلاَّه الله ماتولىَّ ، وأصْلاهُ جهنم وساءت مصيراً . .

« أيها الناس . .

إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب . .

« فما أَحلَّ الله على لسان نبيه ، فهو حلال إلى يوم القيامة . . .

وما حَرَّم الله على لسان نبيه ، فهو حرام إلى يوم القيامة . .

ألا وإنى لَسْتُ بقاض ، وإنما أنا مُنفِّذ . .

« ولست بمبتدع ؛ إنما أنا مُتَّبِع . .

« ولست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم ، غير أنى أثقلكم حملاً » . . ! ! !

* * *

هكذا تتضح المسئولية فى رُوعه غاية الوضوح . .

فموضوعها – هذا الدين الذى أتمّ الله به النعمة وارتضاه للناس ديناً .

وحامِلُها – ليس مُشرِّعا ، ولا قاضياً . . إنما هو مُنفذ لمشيئة هذا الدين ومبادئه .

وهذا الوضع لا يمنحه أى امتياز [لست بخيركم ، إنما أنا رجل منكم] .

والفارق الوحيد بينه وبين أفراد أمته هو أنه « أثقلهم حِملاً » – وهو كما نرى ، محسوب عليه . . وليس محسوّباً له . .

بل إنه حين يدعو الناس إلى العبادة ومكارم الأخلاق لايقف منهم

موقف المعلم ولا الواعظ . بل نراه يتهم نفسه بالتقصير ويَضرعُ إلينا كى نُصدِّقه . . هو الذى بلغ أرفع مستويات التقى والعظمة والهدى والكمال . .

هاهو ذا يستقبل الناس خطيباً فيقول بكلمات يخنقها التحيب والبكاء :

« . . وأيْمُ الله . إنى لأقول لكم هذه المقالَة . وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلمه عندى . فأستغفر الله وأتوب إليه » . . ! ! !

ووضوح مسئوليته كأمين على دين الله . هو نفس وضوحها كأمين على عباد الله . .

تروى زوجته « فاطمة بنت عبدالملك » هذه الواقعة :

« دخلت عليه يوماً ، وهو جالس فى مُصَلاَّه ، واضعاً خدَّه على يده ، ودموعه تسيل . .

« فقلت له : ما بالُك ، وفيم بكاؤك . . ؟ ؟

« فقال وَيْحك يافاطمة . . إنى قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت . ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والمظلوم المقهور ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، والأرملة الوحيدة ، وذى العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم يومئذ محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت ألا تثبت لى حجة ؛ فلذلك أبكى » . .

هذا وضوح مسئوليته عن الأمة كلها والناس جميعاً ، وكما قال :

[فِى أقطار الأرض وأطراف البلاد] .

إن قلبه الورع الذكى الكبير ، مع كل فرد من أمته .

مع كل يتيم ، وكل شيخ ، وكل أرملة . .

مع كل فقير ، وكل مريض ، وكل مجهود . .

مع كل مظلوم ، وكل أسير ، وكل مَقهور . .

كل هؤلاء وأولئك قابعون فى ضميره ، يُجلجلون بحاجاتهم ، ويَجأرون بشكاواهم ، وينتظرونه –كما يتصوّر– ليخاصموه يوم القيامة أمام الله رب العالمين ، حيث لا ينجيه منهم غداً ، إلا ما يبذله لهم اليوم من حق ، وعدل ، وخير ، وبِرّ ! !

من هذه الصورة السريعة لوضوح مسئوليته فى عقله وقلبه ، ننتقل إلى صورة سريعة أخرى ترينا استغراقه فى هذه المسئولية وفناءه فيها . .

لقد احتوته المسئولية فى خِضَمِّها ، فَنسِيَ نفسه ، وأهلَه ، ودنياه ، وعالَه . . نسى كل شىء سواها . ! !

بل نسى حقه فى استشعار الرضا والأمن جزاء ما يُقدم لدين الله ودنيا الناس من ولاء وبرِ . . حتى حقه هذا ، نسيه فى غمرة خوفه المشبوب من الله ! !

لم يعد يذكر سوى مسئوليته الفادحة ، وبدت له أعماله الشامخات كأنها ليست شيئاً مذكوراً . . وسيطرت على شعوره وفكره صورة واحدة – تلك هى صورة موقفه بين يدى الله سبحانه ، يسأله عن كل شعيرة من دينه ، وعن كل فرد من عباده . . ! !

تقول « فاطمة » زوجته :

« لقد كان يذكُر الله فى فراشه ، فينتفض انتفاضة العصفور من

شدة الخوف ، حتى أقول : لَيُصْبِحنَّ الناس ولا خليفة لهم » ! !

ويقول « على بن زيد » :

« كان يبدو ، وكأنَّ النار لم تُخلق إلاَّ له » ! !

ويقول « ميمون بن مهران » :

« رأيتُه مرة يبكى ؛ فإذا هو يبكى دماً » ! !

إن « المضمون الإلهى » للمسئولية دفَع استغراقه إلى أقصى قِيعانِ المسئولية وأبعادها . .

لقد أصبح يستحيي من ربه أن يرى فى فمه لقمة شَهِيَّة . . أو أن يرى على جسده ثوباً ناعماً . . بل أن تُرى على شفتيه ضحكة – مجرد ضحكة . . !

فمنذ ولى الخلافة إلى أن يلقى ربه ، لن يرى ضاحكاً . .

والرجل الذى كان قبل الخلافة بدقائق متأنقاً ، متألقاً ، فَوَّاح العبير ، قد جعلته المسئولية فى لمح البصر إنساناً آخر ، أشْعَث ، أغْبَر . . .

تماماً مثل جَدِّه العظيم « عمر بن الخطاب » ، لو لقيه من لا يعرفه من الناس . لسأله : = أين أجد أمير المؤمنين . . ؟ ؟ ! !

لقد رفض رفضاً مطلقاً كل أطايب الحياة ومناعمها ، ولاذَ بتقشُّف بعيد ، وشَظَفٍ شديد . .

إن الرجفة الكبرى التى نَجمَتْ عن وضوح مسئوليته بكل رهبتها وجلالها ، قد أخرجت حياته كلها عن مدارها الأول ، إلى مَدارٍ جديد . محوره سؤال الله له عن كل حق للدين ، وللدولة ، وللأمة . .

إنه يعبد الله كثيراً . . ولكن « المعبود » لا « العبادة » هو مناط مخاوفه واهتماماته . .

والآن وقد صار خليفة للمسلمين ، فإن علاقته بالله لم يعد يكفى

فيها أن تكون علاقة « عابد » بـ « معبوده » . . بل قبل ذلك يجب أن تكون علاقة « مسئول » بـ « مُسْتَخْلِفه » . . ! !

تقول زوجته « فاطمة » وقد سُئلت عن عبادته :

« والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياماً

ولكني والله ، مارأيت أحداً أخوف لله منه » . . ! !

أجل . . لو كانت مخاوفه هذه مخاوف « عابد » يخشى التقصير فى عبادته ، لوجدَتْ تلك المخاوف مَرفأها سريعاً ، لكنها ، مخاوف « مسئول » يرى الله قد ائتمنه على الدين والدنيا . . على الناس ، والزرع ، والأنعام . .

وهكذا كان استغراقه فى مسئوليته ، واستغراقها إياه ، حقيقة تتحدى كل وصف ، وتفوق كل مُبالَغة . .

* * *

وإنا لَنشهد صوَر هذا الاستغراق تتوالى على جميع مستويات حياته — خليفة ، وزوجاً ، وأباً ، وأخاً ، وقريباً ، وصديقاً . . ! !

فجميع علاقاته بنفسه ، وبعشيرته ، وبالناس أجمعين ، غائصة معه فى أعماق استغراقه البعيدة . بل إن الناس أنفسهم غائصون معه بدرجة قربهم منه مما جعل قرابته وصداقته تتحوَّل إلى غرم فادح للأقرباء والأصدقاء . .

ولقد عبّر عن هذه الحقيقة أجمل تعبير ، خادم له رآه أمير المؤمنين يسحب بِرْذَوْنَه ، فسأله :

« كيف حال الناس . . ؟ ؟

فأجابه :

«كل الناس فى راحة ، إلا أنت ، وأنا ، وهذا البِرْذَوْن . . ! !» ! !

ولقد انعكس استغراقه فى مسئولياته على نفسه ، وعلى أهله ، وعلى كل الذين حوله انعكاساً مجيداً .

فأما هو ، فكما رأينا ، حلَّ فى إهابه إنسان آخر عجيب . .

هذا «محمد بن كعب القُرَظى» يتحدث ، فلْنُصْغ إليه :

«دخلتُ على «عمر بن عبد العزيز» بعد استخلافه ، وقد نحل جسمه ، وعَفَا شعره ، وتغير لونه – وكان عهدنا به فى المدينة وهو أمير عليها . حسن الجسم ممتلئ البَضْعَة . .

«فجعلت أنظر إليه ، لا أصرف بصرى عنه . .

«فقال لى : يابن كعب . مالك تنظر إلىَّ نظراً ما كنتَ تنظره إلىّ من قبل . . ؟

«فقلت : لِعجَبى ، يا أمير المؤمنين . . ! !

قال : ومِمَّ عجبُك . . ؟

قلت : ممَّا نَحِل من جسمك . ونَفا من شعرك وتغير من لونك . .

«أين ذاك اللون النضير . . والشعر الحسن . . والبدن الريّان . . ؟ ! !

«فقال لى : إنك إذن لأشَدُّ عجباً من أمرى ، وإنكاراً لى ، لـو رأيتنى بعد ثلاث فى قبرى ، وقد وقعتْ عيناى على وَجْنَتَىَّ ، وسكن الدود مِنخَرى وفمى » . . ! ! !

ثم راح يبكى . . ويبكى ! !

لقد تغيرت الصورة والإطار . . وذوى الجسد الفارهُ الذى غذّاه النعيم تحت مَطارق الإحساس الرهيب بالمسئولية . . ! !

وإنه لَيدعو إليه فى الأيام الأولى لخلافته ، زوجته « فاطمة » ويواجهها بحقيقته الجديدة . . ويخبرها فى رفق أنه كزوج لم يعد له وجود ؛ فقد ثقلت أحماله حتى لم تعد هناك لحظة فى وقته يهبها لغير تلك الأعباء الثقال . ثم يعطيها حقها الكامل فى اختيار مستقبلها ومصيرها ! !

و« فاطمة » هذه ستظل مُتألقةفى وعينا طوال هذه الصفحات التى نسطرها عن زوجها الخليفة ، وسنظل نُزجِى لها من التحية والإجلال ماهى له أهل – أىٌّ أهل . . ! !

فلقد ظلت بجوار زوجها « القِدِّيس » تشاركه التقشّف القاسى الذى فرضه على نفسه . . ولم تكن تزيد حين تُقرقِر أمعاؤها من الجوع ، وترتعد أوصالها من الصقيع ، على أن تقول :

« ياليت كان بيننا وبين الخلافة بُعْدَ المشرِقَين . .

« فوالله ، ما رأينا سُروراً مُذ دخلَتْ علينا » . . ! ! !

لقد أخذها معه إلى قِيعان مسئوليته واستغراقه . . وأضحت السيدةُ التى كانت زوجةَ خليفة . . وبنتَ خليفة . . وأختَ خليفة . . والمتقلّبة فى أبهى ما كانت الدنيا تعرف يومئذ من حرير ولؤلؤ وذهب ونعيم . . أضْحَتْ لاتملك إلا ثوبين خَشِنين . . فقد حمل الخليفة كل حُلَله وحُللها وحُلل أبنائه وبناته وأمر ببيعها ، ووضع أثمانها فى بيت مال المسلمين . . وأضحت لا تأكل ـ أكثر ما تأكل ـ إلا الخبز الجـاف مُبلّلاً بالزيت ، أو مَثْروداً بالعـدس . . وأضحت صاحبةَ الوجه الشاحب ، والجسد الضامر الوَهْنان . . ! ! !

دخل عليها – أمير المؤمنين – يوماً ، وهى تَخيط ثوبها بيديها فربَّتَ على كتفها مداعباً ، وقال :

« يافاطمة . .

« لَنَحْنُ ليالى دَابِق ، أنعمُ منا اليوم » ! !

مشيراً بهذا إلى حياتهم المنعمة قبل الخلافة فى « مَرْج دابق »

فأجابته قائلة :

« والله ما كنتَ على ذلك – يومئذ – أقدرَ منك اليوم » ! !

تعنى أنه الآن وهو خليفة وحاكم لدولة عظمى ، أقدرُ على التزوّد من النعيم ، منه قبل ذلك . .

وفجأة ، يمتقع لونه ، وتتَثال دموعه ، ويُدرك أنه جاوز بهذه الدُّعابة حدَّه ، فيقول :

« يافاطمة . .

« إنى أخاف إن عصيتُ ربى عذابَ يوم عظيم » ! !

ولم تلبث « فاطمة » إلا قليلاً حتى أَلِفَتْ شظَف الحياة التى اختارها « عمر » لنفسه ولذويه . . وحتى راحت تحياها بروحٍ مُحِبَّة متفانية . .

لقد مَسَّها بركات زوجها القديس ، فراحت تكتشف النعيم الكامِن ، فى الشظف الماثِل . . وتستشرف من وراء دنيانا الفانية فِردوس الله الأعلى ، ورضوانه العظيم . . ! !

* * *

وبهذا الوضوح الكامل لمسئوليته . . وبهذا الاستغراق العظيم فيها ، يستكمل الولاء زواياه بالإخلاص المطلق الذى يربطه بهذه المسئولية أوثق رِباط . .

والإخلاص للمسئولية - أية مسئولية - يُشكّل السياج المنيع الذى يحفظها داخل موضوعيتها ، ويصونها من تَقحُّم الأنانية والهوى عليها . .

وهذا ، هو جوهر الإخلاص لَدى أمير المؤمنين « عمر بن عبدالعزيز ». .

فهو لا يستغرق فيها استغراق من يريد أن يبلغ بها مجداً شخصياً ، أو مغنماً ذاتيًّا . . بل استغراق فانٍ فيها ، مُتَبتِّل لها . ليس بين يديه ولا من خَلفه ، ولا عن يمينه ، ولا عن شماله شيء يلهيه عنها أو يغريه بها . .

إنه إخلاص يعكسه إخلاصه لله رب العالمين .

ورجل كعمر حين يخلص لله ، فلا تستطيع ألف دنيا كدنيانا أن تدخل فى هذه الصفقة نِدًّا ، أو شريكاً . . ! !

لقد كان - رضى الله عنه وأرضاه - دائم الترديد لهذه الآية الكريمة :

« ومَا يُؤْمِنُ أكثرهُم بالله إلاَّ وهُم مشركون »

واتخذ منها نذيراً يلهب به نفسه لتبلغ بإخلاصها لربه ولدينه ولمسئوليته أقصى ما يستطيع أولو العزم الراشدون . وكان يدرك بنور بصيرته أن أدنى مجاملة على حساب إخلاصه لمسئوليته إنما هو شرك متنكر وخفى . من نوع ذلك الشرك الذى حذَّر الرسول أَصحابه منه ، مُخبراً أن له دبيباً كدبيب النَّمل . .

لقد نجح « القدِّيس » نجاحاً باهراً فى صَوْن إخلاصه من دبيب النمل هذا . . وأضحى الناس يقول بعضهم لبعض :

[هذا أول خليفة أموى لانجد حاجة فى قَرْع أبوابه ،
فإن مايكون لنا من حق يأتينا ونحن فى دُورِنا . .
وما ليس لنا بحق ، فَدُونَ بُلوغِه قَطْعُ الرقاب . . ! !]

أجلْ . . لم يكن لإخلاص ابن عبد العزيز . . مُزاحم ولامنافس

لامن قرابة ، ولا مِن صداقة .

يقع خلاف بينه وبين بعض أمراء بنى أمية حول حقوق يَروْنها لأنفسهم .

ويقول أحدهم للخليفة : سآتيك بصَكّ الوليد . .

وفى كلمات حازمة ، يقول عمر .

« أبا لمصحف ستجئ » . . ؟ ؟ ! !

لقد صار الحق وحده هو الفيصل والحكَم . . فلا صُكوك ولا مَواثيق إلا صكوك الحق ومواثيقه . . ولا رَحِم ولا قرابة إلا رَحِم الحق وقرابته . .

ولا يحول بينه وبين الحق شفاعة ، ولا رغبة ، ولا رهبة . .

* * *

كانت عمته « أم عمرو » بنت مروان ، صاحبة دَالَّةٍ على خلفاء بنى مروان وأمرائهم . . وكانت أثيرة لدى – عمر بن عبد العزيز – وموضع حبه العميق ، واحترامه الوثيق .

وحين ألْغى كل مخصصات بنى مروان ، ألغى مخصصاتها أيضاً فسارعت إليه . . وفوجئت به جالساً يتناول طعام عشائه .

وسلَّمت « العمّة » ثم جلست ، وراحت تُحَمْلِق بعينيها لاتكاد تصدق ماتراه . .

لقد كان كل مابين يديه من طعام ، خبز جاف ، وطبق عدس وملح ! !

ودارتْ بها الأرض . . ! !

أهذا هو « عمر » الذى كان يخوض فى النعيم خوضاً ؟ ؟

الآن – وهو الخليفة المطاع – يصير هذا طعامه . . ؟ !

ولم تتمالك نفسها . فأجهشت بالبكاء ؛ ثم قالت :

« لقد جئتك فى حاجة لى . . ولكنى لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسى » . . ! !

قال الخليفة :

« وما ذاك ، ياعَمّة » . . ؟ ؟

قالت : « لو اتخذتَ لك طعاماً ألْيَنَ من هذا » . . ؟ ؟

قال : « لا أملك غيره ياعمّة ، ولو كان عندى لفعلت » . .

قالت : « إن عمك « عبد الملك » كان يُجرى علىَّ ماتعلم . . ثم كان أخوك « الوليد » فزادنى .. ثم كان « سليمان فزادنى . . ثم وليت أنت فقطعته عنى » . .

فأجابها : « ياعمّة : إن عمى – عبدالملك – وأخى – الوليد – وأخى – سليمان – كانوا يعطونك من مال المسلمين وليس ذلك المال لى فأُعطِيكَه ، ولكنى أعطيك مالى إن شئتِ ..

قالت : « وما مالُك ، ياأمير المؤمنين . . ؟

قال : « عطائى . . مائتا دينار فى العام . .

قالت : « وما يبلغ منى عَطاؤك » . . ؟ ؟ ! !

ثم انصرفَت عنه يائسة ، بائسة ، و هى التى كان الخلفاء ينحنون لرغبتها ، ويُسارِعون إلى هواها . . ! !

أبقِيَتْ هناك شفاعة لشافع . . أومطمع لطامع . . ؟ !

لا . . ففى وَقْدة إخلاصه احترقَتْ كل الأطماع . وإن هذا الإخلاص لَيحيطه بسياج ترتدّ عنه كل المحاولات عاجزة مُفلِسة . .

كما يحيطه بغلاف من الأمن النفسى لايخترقه وعيد ، أو تهديد ، أو خوف . .

قال له بعض أصفيائه ، حين جرّد الأمراء الأمويين من كل ثرواتهم وممتلكاتهم ودفع بها إلى بيت المال :

[يا أمير المؤمنين ، ألا تخاف غَوائل قومك] . . ؟ ؟

فإذا الحليم الأوّاب ، الهادئ السَّمْت ، الباكى العين ينتفض كالأسد ، وتخرج الكلمات من فمه كالزئير :

« أبيومٍ سوى يوم القيامة تُخوفوننى . . . ؟ ؟

« فكل خوف أتّقيه دون يوم القيامة لا وُقيته » ! !

حقًّا . إن الفضيلة مَثوبة نفسها . . وحين يُخلص امرُؤ للحق مثل هذا الإخلاص الذى نراه ، فإن إخلاصهُ يَبوء عليه ما لا يَبوءِمِعشارَه ذكاء ، أو جهد ، أو حُظوظ ! !

إن العقبات التى كانت تتشامَخ أمام « عمر » لِتصده عن السبيل كانت تتحدى كل طاقة واقتدار . .

فأمراء البيت المالك . . والطبقة العريضة التى أنجبها الحكم الأموى ، وأصبحت أسيرة مصالحها ونفوذها . . والفساد الذى كان ناشراً سلطانه . . والاقتصاد المتردِّى . . والأزمات الطاحنة . . ثم علاقاته بأهله وبأصدقائه . .

كل ذلك ومِثْلُهُ معه ذاب تحت أنفاس إخلاصه الحار المتألق . . ! !

* * *

وإذا كان إخلاصه هذا يبهرنا بمقدرته الفائقة على اكتساح السدود ،

فإنه لَيبهرنا قبل ذلك بمفهومه الذى كان له فى وعى « عمر » وضميره . .

فهو بكل مواهبه وكفاياته لايرى لنفسه الحق فى أن يحمل مسئولياته بذكائه . . بل عليه أن يحملها ويُنجزها بالإخلاص وحده

إنه يَبرأ إلى الله من حوله ومن قوته . . وإنه فى ضياء إخلاصه العامر لَيهرب من قدرته إلى قدرة الله ، ومن اختياره إلى اختيار الله ، ومن رأيه إلى توفيق الله . . ! !

لهذا كان دعاؤه الدائم :

« اللهم رَضِّنى بقضائك . وبارك لى فى قَدَرك ؛ حتى لا أحبّ تعجيلَ ما أخّرت ، ولا تأخير ما عجَّلْت » ! !

إنه يعلم أن الإخلاص حين يحتوى قُوَى الذكاء الإنسانى ويَصهرها فى بَوْتَقته ، فإنه يضاعف من فاعلية هذا الذكاء أضعافاً كثيرة . وبَدلاً من أن يُشتته الهوى والغرض ، تُؤلِّفه وحدة العمل والاتجاه . . هذه الوحدة ، التى يُفيئها الإخلاص ويُزْجيها . .

* * *

وكما تُوَلِّد الكهرباء الحركة وتُفجِّرها ؛ فإن الإخلاص لمسئولية الحكم قد فجَّر وولَّد حركة حياة ابن عبدالعزيز . . . هذه الحركة التى لم تكن سوى : القَداسَة . . .

والقَداسَة ، هى الحاصل النهائى لفضائل الروح مُجتمعة ومتألقة فى ذِروة تجلِّيها وظهورها . . .

هنالك تكون القَداسة ، ويكون القدِّيس . . .

ولقد أفاءت المسئولية على — عمر — التوفيق الذى سما بفضائل روحه

من ورع وزهد وطهر ونُسُك إلى أعلى مستوياتها ، ومن ثَمَّ كانت المسئولية سبباً مباشراً لظفره بالقداسة ، وهذا جوهر إعجازه الفريد . . .

فلو أنه كان قديساً من قبل ، ثم جاءته الخلافة وهو متمكن من فضائله وقَداسته ، فبقى وفيًّا لها مُثابراً عليها . . . ؟ ؟

لكن الذى حدث أن منصب الخلافة الذى يُغرى بكل شىء إلا بالقداسة ، هو الذى كان ، وكانت مسئولياته الجِسام ، مِرقاة رُوحه الطاهرة العظيمة توقَّلَتْه فى لمح البصر إلى فردوس القداسة ، ومكانة القدِّيس . . ! !

* * *

وهناك عبارة يكتبها مؤرخو سيرته تستوقفنا طويلاً ، وتبهرنا كثيراً . .

أما العبارة فهاهى ذى :

[« . . ثم بويع « عمر بن عبد العزيز » .
فقعد للناس على الأرض » . . ! !]

إن هذه العبارة الموجزة تفتح بصائرنا على قوة « القداسَة » التى أنعم الله بها على عبده الصالح « عمر بن العزيز » . .

إنها قوة تكتسح كل الأوضاع الرتيبة والعلاقات المألوفة ؛ لتنشىء أوضاعها الخاصة ، وعلاقاتها المخلصة . .

فما من بأس فى أن يجلس الخليفة مجلساً فيه من روعة المظهر أو بَهائه ما يحفظ وقار المنصب .

أجَلْ ، ليس هناك بأس . .

و« عمر » يعلم هذا بفقهه وسعة أُفقه . .

بيد أنه من اللحظة التى طوَّقته فيها المسئولية ، لم تكن تحركه روح

الخليفة . . بل روح القدِّيس . . ! !

والقداسة – دائماً – تضع الوسيلة فى مستوى الغاية ، فلا يعنيها بلوغ الغاية إلا بالقدر الذى يَعنيها فيه نوع الوسيلة . .

ثم إن لها وسائلها ومنطقها . .

إنها تتعامل مع جوهر الأشياء ، لامع الأشياء نفسها . . ولمّا كان جوهر السلطة فى نظر القداسة ، الخضوع المطلق لحقوق الناس الذين يلى الخليفة أُمرهم ، ويحمل مسئولية مصايرهم ، فإن مكانه إذن أن يكون بين أيديهم ، وليسوا هم الذين بين يديه . .

والشكل الذى رآه « عمر » ملائماً للتعبير عن هذه الحقيقة . هو جلوسه للناس على الأرض . . ! !

أجل . . ليس مجرد الجلوس على الأرض ، الأمر الذى كان يعنيه . إنما هى الحقيقة المجيدة التى يمثلها هذا الجلوس . . حقيقة أن السلطة خضوع كامل لحقوق الناس تجاهها . . ! !

وإذن فلتأخذ من ناحية الشكل أقصىَ مظاهر الخضوع ، كما ستأخذ من ناحية المضمون أقصى مظاهر الالتزام . . ! !

ومن أجل هذا قعد الخليفة على الأرض ، لايفصله عن ترابها سوى حصير متواضع . .

قعد على الأرض ؛ ليهدم كل ماللسلطة من بَذْخ واستعلاء ، ولينزلها عن عرشها الصَّلِف وكبريائها الزائفة ، إلى أرض البساطة ، والتواضع ، والمرحمَة . . ! !

* * *

والقداسة التى تمتع بها ابن عبدالعزيز ، قداسَةُ رجل أراه الله مَناسِكَه . . فهو يرى بنورٍ من ربه ، ويُطل من جميع النوافذ دون أن تحتبسه صومعة ، أو يعطل رؤيته تَزَمُّت وانطواء . .

إنها قداسَة تبهرنا بما تنطوى عليه من فطنة وحِذق ومضاء . فهل يتصور أحد أن قديساً كهذا القديس لا يكفّ عن العبادة والنُّسُك ، يُطلب إليه ذات يوم الموافقة على صرف مبلغ كبير من المال لكسوة الكعبة ، فيكون جوابه :

« إنى أرى أن أجعل هذا المال فى أكباد
جائعة ؛ فإنها أولى به من الكعبة » . . ! !

هل يُتصور حدوث ذلك ، مِن عابد ، ناسك ، قدِّيس ؟ ؟

لكنها القَداسَة الذكيّة التى تُحَدِّق دائماً فى الجوهر ، وتضع على همسِهِ العميق سمعَها ، وتتتبَّع مَواقع الحق ، كما يتتبع الطير مواقع النَّدَى . . !

إن هذا الناسك الأوَّاب ، ليُذكَر له يوماً نبأ واعظ يدعو الناس إلى طاعات لايأتيها ، فإذا القديس يُعلِّق على هذا بقوله :

« لو أن كل امرئٍ لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى
يُلزِم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولانهى عن المنكر . .
ولَقلَّ الواعظون والسَّاعون لله بالنصيحة » . . ! !

إنها قداسة ذكية نفَّاذة . . .

قَداسَةُ رجل كان يدعو ربه دائماً فيقول :

« اللهم انفعنى بعقلى » . . ! ! !

* * *

وهى قَداسَة أتيح لها أن تُحدِث تغييراً من أعدل وأنبل ماشهدت

دنيا الناس من تغيير . . ! !

قداسة جاءت الحياة ، ومعها من الزهد ، والورع ، والطهر ، والتُّقى ، والعدل ، والرحمة ، ما كان الناس يحسبون أن الدنيا فَرَغَتْ منه إلى الأبد . .

قداسة لم تكد تجلس للناس على الأرض] حتى أنبتت الأرض عدلاً ورحمة . . وأمطرت السماء عدلاً ورحمة . . ورعى الذئب مع الشاة ، فى تآخ وسلام . . ! ! !

ولقد أنجز القديس كل هذا التغيير الهائل الذى بدا وكأنه تغيير فى كيمياء الزمن ، وكيمياء الحياة . . أنجزه بمنهج لا ندرئ أنقول ! إنه بالغ اليُسر . . أم نقول : إنه بالغ الصعوبة . .

أم أن اليُسر والصعوبة يتراجعان بعيداً ، ليفسحا المكان لوصف آخر أحق منهما وأولى . . ؟ ؟

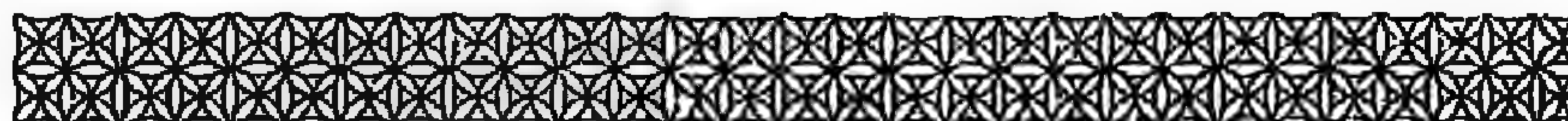
أجَل . . إن ذلك لكذلك . .

فلنقل إذن : إنه منهج بالغ الإعجاز . . . ! !

الفصل السابع

المنهج

[. . بل يُصلحهم العدل والحق
فابْسُط ذلك فيهم . .] ! !



كَتب إليه واليه على خُراسان يستأذنه فى أن يرخص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلاً فى رسالته للخليفة : [إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط] . .

فكان رده التَّقىُّ الحازم :

« كذَبتَ . .

« بل يُصلحهم العدل والحق ، فابْسُطْ ذلك فيهم ، واعلم أن الله لا يُصلِح عمل المفسدين » . . ! ! !

* * *

العدل ، والحق . . ! !

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقهما اللاحِب المستقيم ، ستمضى خُطاه . . آخذاً معه على ذات الطريق جميع الناس — أمراءهم ، وعامَّتهم . . أغنياءهم ، وفقراءهم . . أقوياءهم ، وضعفاءهم . .

والخليفة ، الذى نراه دائم البكاء ؛ بل النحيب . كلما ذكَر الله واليوم الآخر . . والذى ينتفض تحت وقع تُقاه انتفاضة العصفور ، حتى لنحسبُه لايَصلح لغير الصومعة يتحنَّثُ فيها ويتعبد . . ! !

هذا الخليفة ، سيبهرنا الآن ونحن نطالع منهجه وأسلوبه فى الحكم حيث تُطِلّ علينا من وراء دموعه المُتثالة روح عالية تناضل فى جهاد مستبسل لبلوغ أسمى آفاق العدالة والحق . . وحيث تُطِل علينا كذلك بصيرة نافذة لايُفلت من ضيائها شيء وإرادة حازمة لا يَهُولُها صعب ، ولا يُجْفِلُها خطَر . . . !

وفجأة سنرى العينين السابحتين فى دموعهما دوماً ، تُحَدِّقان كعينى الصقر . . وتُرسِلان بريقاً أخّاذاً يُقنع كل من يتلقاه أنه أمام عينين ثاقبتين ليس إلى خداعهما سبيل . . ! !

* * *

إن المصاعب المتطاولة ، والأخطار المحدقة ، والمؤمرات المتساوقة ، لن تزيد الإرادة الرافعة لواء العدل والحق إلا تقدماً ومضاء . .

فَلْتَغْنَ العواقب لنفسها . . أما هو فلن يبالى بما كان ولا بما سيكون منها . . بل سيضع يمينه فى يمين الحق . ويمضى معه إلى حيث يُد مدِمان معاً على مظالم وظلمات الأعوام الستين التى سبقته فى الحكم الأموى . . وإلى حيث يجعلان ظُلُماتِها نوراً . . وهَجيرها فردوساً . . وترفَها قناعة . . وانحلالها ورَعاً . . واستعلاءها تواضعاً . . وقَهرها رحمة . . ورُعْبَها أمناً . . ! !

وبين يدى عَزمِه الرّبانى القدير ، راحت كلماته تقرع أسماع الغطرسة ، والتحدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويُدْحَضِ الباطل إلا بتقطيع أوصالى وأعضائى ، لأَمضَيْتُ ذلك وأنا سعيد » ! ! !

« ووالله ، لو لَبِثْتُ فيكم خمسين عاماً ، ما أقمتُ إلا ما أريد من العدل » . . . . ! !

فلْنتابع منهجه لنرى . .

ولكن علينا ألاّ ندع التفاصيل الكثيرة تَشغلنا ببهرها عن الأسس والقواعد .

وعلينا أن نقتصد فى ذكر الوقائع والمشاهد التى تحكى خصائص المنهج وسماتِه ؛ حتى يُفِيء علينا هذا التركيز فى الرؤية تركيزاً مُماثلا فى نشوة العقل وغبطة الروح . .

أى أننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومَحاوِره التى تدور حولها بقية التطبيقات والتفاصيل . .

وتتلخص هذه المحاور فى :

* نظرته إلى دور الدولة ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور الشورى ووظيفتها . .
* نظرته إلى دور المال ووظيفته . .
* موقفه من وحدة الأمة وسلامتها . .
* أسلوبه فى العمل . .

* * *

« فأولاً » : الدولة قدوة . .

إن الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة لا يأتون

أمراً مذكوراً . . فتلك سُنة مألوفة معتادة . أن تحمى القوة القانون . .

أما الحكام الذين يَحمون القانون وينفذونه بالقدوة ، فأولئك الذين يجاوزون المألوف المعتاد إلى الخوارق والمعجزات . . .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحداً من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل عهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ؛ إذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى . .

والدولة عنده تتمثل فى كل الأجهزة العاملة ، لكن يأتى فى المقدمة دائما :

(ا) الخليفة بوصفه رئيس الدولة . .

(ب) الولاة بوصفهم حكام الأقاليم . .

(ج) القضاة . .

(د) أمناء بيوت المال . .

والخليفة – أىُّ خليفة – وإن وضعته وظيفته ومسئولياته على رأس الدولة ، فإنه يظل عاجزا عن أداء دوره مالم يقف معه فى مستواه أو قريباً من مستواه وُلاته وقضاتُه وأمناؤه على الأموال العامة .

هاهو ذا « عمر » يقول :

« إن للسلطان أركاناً لايثبُت إلا بها . .

« فالوالى ، ركن . .

« والقاضى ، ركن . .

« وصاحب بيت المال ، ركن . .

« والركن الرابع ، أنا » . . ! !

وإذن ، فلكى تكون الدولة قدوة فى حمل دين الله وحقوق الناس ،

لابد أن تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الأربعة مجتمعين . .

الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته . .

ولكى تكون الدولة قدوة ، لا بد أن تكون بمسئوليها جميعاً ، وعلى رأسهم أمير المؤمنين ، طليعة العمل ورائده . .

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها فى مكان القدوة ، حاملةً وحاملاً معها كل ماتلقيه القدوة من مسئوليات ، وباذلاً كل ماتتطلبه من تضحيات . .

وقبل أن يأمر ولاته ، وقضاته ، وخزنته . بدأ بنفسه .

* * *

لقد تلونا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست إلا كأحدكم غير أنى أثقلكم حِملا » ! !

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ، الحازم ، الفريد . .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة أربعين ألف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمير أموىّ . . ومن الأرض التى كان يملكها . . ومن نصيبه الوفير من ميراث أبيه عبدالعزيز بن مروان . .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، فيرى أن هذا الثراء الفاحش الذى يمتلكه أمراء بنى مروان – وهو معهم – لم يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتمركزة فى أيدى حفنات من الأمراء والسادة ، إلا حقوق الملايين وأقواتها سُلبتْ منها بغير حق ، وبغير سلطان . . !

ومن فَوره ، اتخذ قراره الحاسم بإلغاء كافة مخصصات الأمراء ، ومُخصصات حَرِيمهم وخدمهم ، وقراره بنزع الإقطاعيات الزراعية منهم جميعاً ، وردها إلى بيت المال . .

وبدأ بنفسه ، فتخلَّى عن جميع أملاكه وأمواله ! !حتى أرض « فَدَك » فى « خَيْبَر » وكانت خير ممتلكاتِهِ وأثمنَها . ولم يكن أحد أَقطَعه إياها ، بل ورثها عن أبيه . .

لكنه سأل نفسه : ومن أين جاء بها أبوه . . ؟ !

لقد أفاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم « خيبر » ، فخصَّصها لأبناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الأمرَ معاوية . فوهبها لمروان . . ومن مروان . وصلت إلى ابنه « عبدالعزيز» والد « عمر » . .

نقول : حتى هذه الأرض ، تخلىَّ عنها وكتب لواليه على المدينة يأمره أن يضمها لملكية الدولة ، وأن يصرف رَيْعها ونتاجها ، حيث كان يُصرف على عهد الرسول وخلفائه . .

ليس ذلك فحسب . . بل لقد تنازل عن كل درهم فى راتبه المخصص له كأمير للمؤمنين . . ! !

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة أرض صغيرة كان قد اشتراها بِحُرِّ ماله ، ولم تكن تُغِلّ أكثر من مائتى دينار فى العام ، راح يعيش بها هو وأسرته الكبيرة .

مائتـــا دينار فى العام ، لرجل كان دخله منذ أيام لاغير — أربعين ألف دينار . . ! !

مائتا دينار ، لحاكم أعظم ، وأكبر ، وأغني امبراطوريات عصره وعالمه ، يعيش بها طول العام وعَرضه ، وتعيش معه أسرته التى كانت هى الأخرى —

منذ أيام – لاغير ، تَخُبُّ فى النعيم خَبًّا . . وتَعُبُّ المباهج عَبًّا . . ! ! !

ولكن ، أى بأس ؟ !

أليس قد رفع الحقَّ شريعة والعدلَ منهاجاً ؟ !

فليكن حَسْبُه ألاَّ تسقط الراية من يمينه . . وليكن حسبه أن يُحلِّق بها فى مستوًى تتقطع دون بلوغه الأنفاس . . ! !

كل أرضه تركها للدولة . .

كل ثروته النقدية ، دفعها إلى خزانة الدولة . .

بل لقد جمع ثيابه وحُلله الرافهة ، وحُلل زوجته وأولاده . .

ثم جمع مراكبه وعُطوره ومَتاعه ، ثم دفع ثمنها الذى بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار إلى بيت المال . . ! !

ثم حَرم نفسه حتى حقها المشروع فى راتب الخلافة الذى كان يستطيع أن يتنازل عن نصفه أو عن ثلثيه ، لكنه رفضه جميعاً إلى آخر درهم منه . . وراح يعيش بعائد أرضه الصغيرة – مائتى دينار فى العام – بواقع ثلاثة أرباع دينار فى اليوم ، لأمير المؤمنين وزوجة أمير المؤمنين ، وأولاد أمير المؤمنين . !

أفما كان يكفيه أن ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركاً أهله وأولاده يحيون ولو فى مستوى حياة أوساط الناس . . ؟ ؟

إنه يعتبر هذا – لوحدث – احتيالا على المسئولية ، وهروباً من تبعات القدوة ، ويرى النار تمدُّ إليه ألسنتها اللاهبة ؛ لتطوقه حساباً له وعقاباً . . ! !

ومَن ظن أننا نبالغ فى التصوير ، ونُسرف فى صبغ الألوان فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوماً إلى داره بعد صلاة العشاء ، ولَمح بناته الصغار . فسلم

عليهن كعادته ، وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن . رُحْنَ يُغطّين أفواههن بأكُفِّهم ويتبادَرْنَ الباب . .

فسأل : ماشأنهن . . ؟ ؟.

فأجيب : بأنه لم يكن لديهن مايتعشَّين به سوى عدس وبصل . . فكرِهْن أن يَشمّ من أفواههن ريح البصل فتحاشَيْنَه لهذا . .

فبكى أمير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يابناتى . .

ما ينفعكُن أن تعَشَّين الألوان والأطايِب ، ثم يُذهَب بأبيكُنَّ إلى النار . . ؟ ؟ . . » ! ! !

وترى إحدى بناته الصغار صديقة لها تزين أذنيها بلؤلؤتين جميلتين ، فترسل إحداهما إلى أبيها ضارعة أن يشترى لها مثلها .

ويدعو أمير المؤمنين خادمه ، ويأمره أن يجيء بجمرتين ملتهبتين . . ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« إن استطعتِ أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك ، جئتك بلؤلؤتين كهذه » . . ! !

إن مسئولية القدوة – إذن – لاتنحصر فيه ، هو الخليفة والحاكم . . بل – وحسب منهجه وتقديره – تنال أهله جميعاً ، حتى بُنَيَّاته الصغار . . !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسئولية والقدوة . .

اقترب يوماً من زوجته فاطمة ، وقال لها :

« إنك لَتعلمين من أين أتاك أبوك – عبدالملك بن مروان – بهذه الجواهر ، فهل لك أن أجعلها فى تابوت ، أضعه فى أقصى

بيت المال ، وأنفق مادونه ، فإن خَلَصْتُ إليه أنفقته فى حاجات المسلمين » . . ؟ ؟

ولم يكن قد بقى لفاطمة سوى هذا الحُلِيّ وهذه الجواهر ، وهى عزيزة عليها ؛ لأنها هدية أبيها لها فى عُرسها وزَفافها . .

ولكنها لاتُجادل زوجها « القديس » حتى فى هذه . . وتجرد منه نحرها ، ومعصميها ، فى غبطة ورضاً . . ! !

* * *

ويغادر – أمير المؤمنين – قصور الخلافة ، ويأوى إلى دار متواضعة . . ثم لا تشهد هذه الدار إيقاد النار إلا لِماماً . .

ويأخذ على نفسه العهد ألاَّ يَستحدث لنفسه شيئاً من أشياء الدنيا ومتاعها حتى يلقى ربه . .

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مِرقاتان يرقى عليهما من صحن داره إلى حجرته . .

« فتهدَّمت إحدى المرقاتين ، فأعاد بناءها رجل من أهله . .

« فلما جاء « عمر » ووجدها . سأل : مَن صنع هذا . . ؟

قالوا : فلان . قال : إلىَّ به . .

« فلما جاء قال له عمر . وَيحك أَنَفِسْتَ على « عمر » أن يخرج من الدنيا ولم يضع لَبِنة على لبنة . . ؟ !

« والله ، لولا أن يكون هدمى لها إفساداً بعد إصلاح لهدمتها ورددتها إلى ما كانت عليه . . » ! ! !

* * *

ويدخل عليه فى داره أحد خاصّته المقربين ، فيجده بركن منها تغطيه الشمس ، وقد دثّر جسمه كله فى إزار . . وحَسِبه الزائر مريضاً ، فسأله ، ما بالُه . . ؟

فأجاب أمير المؤمنين :

« لاشيء ، غير أنى أنتظر ثيابى حتّى تجفّ . .

قال الزائر : وما ثيابك يا أمير المؤمنين . . ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وإزار . .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصاً آخر ، ورداء ، وإزاراً . . ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بَلِيَتْ . . ! !

قال الزائر : ألا تتخذ سواها . . ؟ ؟

وهنا شَرِقَتْ كلماته بدموعه ، وراح يُجهش بالبكاء مسنداً جبهته على راحتيه ، مُردداً آية القرآن الكريم .

[« تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لايُريدون عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . . ! ! !]

ولما كان يريد للدولة فى عهده أن تكون رحمة وحناناً ؛ فقد راح يمزق عنها كل أقنعة الصَّلَف والكبر والتمايُز . .

وأيضاً ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس أن يسيروا بين يديه . بل منعهم كما منع الناس جميعاً أن يقوموا له حين يَطلُع عليهم ، وقال لهم :

« إنما يقوم الناس لرب العالمين » ! !

وناداه يوماً رجل من المسلمين قائلاً : [يا خليفة الله فى الأرض] . . فأخذته الرّعدة الصالحة ، وصاح فى الرجل :

« مَـــــهْ . .

« إنى لما وُلدتُ أسمانى أهلى « عمر » فلو ناديتنى يا « عمر » أجبتك . .

« ولما كبرت اخترت لنفسى كُنية ، فكُنيت « أباحفص » ، فلو ناديتنى – يا أبا حفص – أجبتك . .

« ولما وليتمونى أموركم سميتمونى « أمير المؤمنين » فلو ناديتنى – يا أمير المؤمنين – أجبتك . .

« وأما خليفة الله فى الأرض ، فلست كذلك . .

« إنما خلفاء الله فى الأرض رسله وأنبياؤه » . . ! !

ومَنع الدعاء له فوق المنابر فى خطبة الجمعة . وأرسل بذلك كتاباً حازماً إلى ولاته فى جميع الأقاليم ، قائلا فيه :

« مُروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه إطناب دعائهم وصلاتهم . .

« ثم لِيُصَلُّوا على المؤمنين والمؤمنات . .

« ولِيَستنصِروا الله . .

« وليكن دعاؤهم لعامَّة المسلمين . .

« ولْيدَعوا ماسوى ذلك » ! !

* * *

وإذا كان قد حمل وأهلُ بيته معه مسئولية القدوة على هذا النحو المجيد والفريد . . إذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ؛ فإن هذا لايكفيه ، بل لابد أن يحملها أيضاً أمراء بنى مروان جميعاً طائعين إن شاءوا . . وإن أَبوْا فكارهين . . ! !

لن يَدَعهم يتبذَّخون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأً ومغنَماً .

إذا كان ولابد ، فلتكن هذه القرابة ملجأً لهم من أطماعهم وشهواتهم . . ومَغْنَماً بالْتزامهم منهج أمير المؤمنين . . ! !

أما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم فى عهده كدنياهم قبل عهده . .

لن يَظَلّوا طبقة فوق الأمة . . ولن يُدْلِف إلى قصورهم وجيوبهم ثلث الدخل العام للدولة ، كما كان أمرهم من قبلٍ أن تُهِلَّ على الدنيا أيام الأغَرِّ ابن عبد العزيز . . ! !

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الإبقاء على بعض امتيازاتهم ، فلما أخفقوا راحوا يُناورون ، ولما أخفقوا ، راحوا يهددون . .

ولكن رجل القداسة وقف لهم كالقدَر ، وأحكم وضع الشكائم على غرورهم وأهوائهم ، ثم دفع بهم جميعاً أمامه على طريق العدل والحق . مُصَفِّياً ترفهم المنهوم . . ! !

حدث يوماً أن أرسل إلى كل أمير وأميرة بقدر من المال يدبرون به أمورهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشِنة ، فتنادَوْا واجتمعوا ، وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم العطاء . .

فكان جوابه لهذا الصديق :

« والله لقد ندمت على هذا الذى أعطيته إياهم ، وإنى لأعلم أن فى المسلمين من هو أحق به ، وأحوج إليه منهم » . . !

وعاد مبعوثهم إليهم يَقرع أسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

« يابنى أُمَيَّة . .

« لاتلوموا إلا أنفسكم ، فقد عَمَدْتُم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان » فزوجتموه حفيدة « عمر بن الخطاب » فجاءتكم بعمر بن

الخطاب ، ملفوفاً فى ثياب « عمر بن عبد العزيز » ، فلا تلوموا إلا أنفسكم » ! ! !

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والأمناء على الأموال العامة – أولئك الذين سمعناه من قبل ينعتهم بأنهم والخليفة معهم يشكلون أركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ؛ بحكم كونهم نوابه فى حكم الأقاليم .

والقضاة ؛ بوصفهم أهل الفصل فى مصاير الناس بما يملكون من كلمة الشريعة والقانون .

وأمناء بيوت المال ؛ بما لهم من سيطرة مباشرة على الأموال العامة وأرزاق الناس .

نقول : كان يرى فى هذه المناصب أخطر مناصب الدولة وأكثرها ثقلاً وحسَاسِية . . كما كان يرى فى استقامة أمرها العاملَ الأول والأهم لتمكين الخليفة من حمل مسئولياته فى قسطاس وسَداد . .

وهكذا راح القديس يستكمل سِماتِ القدوة للدولة ، باختيار وُلاته ، وقُضاته ، وأمنائه فى حرص من يختار عاقِبَته ومَصيره ! !

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو فى مستوى ورعه ، وشموخ نُسكه وفضائله ، فراح يجتهد فى العثور على من يكونون فى مستوى رَجائه وثقته . .

وسارَع ، فعزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا فى خدمة المظالم السابقة . ثم ولَّى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة أمثال : « أبى بكر بن

حزم » و« عبد الرحمن القشيرى » و« عدىّ بن أرطاة الفِزارى » وآخرين من طرازهم وإخوانهم :

وكان أول ما أوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا فى العدل والإصلاح والإحسان ، بقدر من كانوا قبلكم فى الظلم والفجور والعدوان » . . ! !

كذلك ، كان أول ماقدم به ولاته للناس هذه الكلمات الأمينة :

« إنى قد وليت عليكم رجالاً . .

« لاأقول : إنهم خياركم ، ولكنى أقول : إنهم خير مِمَّن هم شرٌّ منهم » ! !

إنه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان . . وإن كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدَرٍ معلوم . ! !

ويمضى ولاته إلى أقطارهم ، ويسهرون على مسئولياتهم فى ولاء صادق . . تقودهم على الطريق وتثبت أقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس . . هذه السيرة التى كان أريجُها ينتشر انتشار الضياء ، وعبيرُها يفوح ويهُبّ هبوب الرياح والبُشْرَيات . . ! !

لقد راحوا يخجلون من كل تقصير يَبدُر من أحدهم . . وإذا سوّلتَ لأحدهم نفسُه . شفَاها من وساوسهـــا بمجرد تَذكُّر خليفته القديس فى حياته الشظِفَة ، ورقاعهِ البالية ! ! !

وراح الخليفة يُوَاليهم برسائله ووصاياه . . وصيـــة من بعـــد وصية وكتاباً وراء كتاب . .

لنقرأ واحداً من هذه الكتب :

« . . أما بعد

« فإن من ابْتُلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليّة عظيمة ! !

« فنسأل الله عافيته وعونه . . ؛

« وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سِرك وعلانيتك ، عند الذى ترجو به النجاة من ربك . .

« تذكَّر ماسلف منكُ من خطأ فأصْلِحه ، قبل أن يَتولّى صلاحَه غيرُك . .

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس . .

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً فى دينهم وأعراضهم . .

« واسْتُر كل عَوْراتِهم . .

« واملكِ زمام نفسك تجاههم إذا هَوِيت ، وإذا غضبت » ! ! !

* * *

وكما أحسن اختيار وُلاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت المال . .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الأمناء على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت أضواء قداسته وقدوته تتعالى وتتعاظم حتى كانت منارات هادية ، وَسعِت الدولة كلها والأمة جميعها بأنوارها الغامرة وهُداها الوثيق . .

* * *

« وثانياً » : **الشُّورَى ضرورة . .**

وننتقل الآن إلى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس

وأسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفاً فذًّا يمتاز بالعمق وبالشمول .

لقد أدرك أن كل مايَشيده من دنيا صالحة ، وعالَم قويم ، لن يكون ثمة ضمان لاستمراره وإنمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه . . وتمثّل له هذا السياج فى توسيع قاعدة المسئولية حتى تنتظم أصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين . .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة . . وبَعْثُ رأى عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقُد الأخطاء ويُسهِم فى إصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد . . لكن ديمقراطية الحاكم مع ذلك كانت تَبِينُ وتُسْفِر كالشمس من خلال أسلوبه فى الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبطانته ، واستعداده لتقبل النقد ، وسماع كلمة الحق . ونظرته إلى الأمة التى يحكمها ، ومدَى ولائه لحقوقها وحرياتها . .

وبهذا المعيار والمِسْبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » فى هذا المجال وكأنه نسيج وحده ! ! !

لقد أحاط نفسه بالأبرار الذين لايخافون فى الله لومة لائم ، والذين لا يُزيفون اقتناعهم ، ولا يَلْبِسون الحق بالباطل ، وإن قطعت منهم الرقاب . .

جمعهم حوله ، يفكرون معه . . بل لقد كان يوصى بعضهم أن يجلس تِلْقاءه وهو فى مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على حديثه ، وحركاته ، فإن نَسِيَ فقال كلمة ، أو أتى حركة فيها شبهة من خطأ ، نبهوه على الفور بإشارة ، تعارَف وإياهم عليها . .

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفاً . . وآمن بأنها كلما اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العدل ، وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم أماتهم أحراراً . .

من أجل ذلك ، راح فى سرعة الضوء يخلق رأياً عاماً صادقاً أميناً ، فى طول الدولة وعرضها . .

وراح يضع الحاكمين والمحكومين وجهاً لوجه أمام مسئوليتهما المشتركة ، بل الواحدة فى دَحْضِ الخطأ والتزام الصواب . .

فيكتب للولاة قائلاً :

« إنكم تَعدُّون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ،

« ألا إن أَوْلاهما بالمعصية الإمام الظالم » ! ! !

ثم يكتب للناس فى شتىّ الأقاليم قائلاً :

« أىَ عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم . وقد صيرتُ أمره إليكم ، حتى يُراجع الحق وهو ذَميم . . . ! ! »

ويرسل إلى أحد وُلاته قائلا :

« قد كَثُر شَاكُوك . . وقلّ شاكِرُوك . . فإمَّا اعتدَلْت ، وإما اعتَزلْت » ! ! !

هكذا رفع سلطة الشعب فى وجه سلطة الحكم ، وأسلم نَواصِى ولاته وعماله للرأى العام يقودهم على طريق الحق طائعين أو كارهين .

ولكى يَدْعَمَ هذه السلطة ، فتح أبوابه على مصاريعها لكل شاكٍ أو متظلم من حاكمه وواليه . . وأرسل منشوراً موجَزاً إلى جميع الأقطار :

« مَن ظلمة إمامه مَظلمة ، فلاَ إذْن له علىّ » . .

أى ليقتحم علىّ دارى ، غير منتظر إذناً ، وغير واقف بباب ! !

* * *

وإنه لَيبهرنا أسلوبه الفريد فى بعث الرأى العام الشجاع ، وتزكية حرية النقد ، وشدِّ زنادها إلى أقصاه . .

فى سبيل ذلك ، نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل مَن يكشف عن خطأ ، ويَهدى إلى صواب . . ! ! !

ولْنطالع فى إجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم أمر أن يُقرأ على الناس فى المواسم والمحافل والمجامع . .

« أما بعد . .

فأيما رجل قدم علينا فى مظلمة نردُها ، أو أمر يُحيي الله به حقًّا ، أو يميت باطلاً ، أو يجيء بخير . . فله منا مابين مائة دينار إلى ثلثمائة دينار . بقدر ما يتكاءدُه فى ذلك من طول السفر وبُعد الشُّقَّة » . . ! ! !

أليس عجباً هذا الذى نقرأ ونرى . . ؟ ؟

ألاَ ، وإن أعجب من ذلك ، أَن بطل هذا كله رجل لم تكن بيئته ولا عصره بقادرَيْن على تشكيل بَنائِه . .

لكنها صِبْغَةُ الله . . ومُعجِزة الإسلام . . ! ! ! !

ولكَمْ كان صادقاً حين قال :

« لو وكـلَنِي الله إلى نفسى لكنتُ كغيرى » . .

لقد راح يضرب المثل الأسمى والقدوة الباهرة فى تقبُّل النقد — هو

الذى لم يعرف الناس له خلال خلافته كلها - خطأ واحداً يستأهل النقد والتفنيد . .

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد مِن عامة الناس من يقول له : إلى أين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يُرَبِّتُ على كتفه ، ويُدنيه منه ، ويقول له :

« زِدنى ياأخى ، جزاك الله خيراً » ! !

إنه يلتمس الحكمة والصواب وراء ألسنة الصادقين حتى حين يكون أحدهم طفلاً . .

قَدِم عليه وفد من المدينة يوماً ، وتقدم من بينهم غلام صغير ليتحدث باسمهم ويعَرض قضيتهم . فتملاَّه أمير المؤمنين ، وقال له :

« يابنى . . دع القول لمن هو أَسَنُّ منك »

ويبدو أن الغلام العربى الأصيل كان يحمل نُبوغاً مبكراً ، فقد أجاب الخليفة من فوره :

« ياأمير المؤمنين . .

« المرء بأَصْغَرَيه : قلبِه ولسانِه . .

« ولو كان الأمر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو أحق بهذا الأمر منك » . . ! ! !

وفجأة ، تَنثال دموع الغبطة والفرح من عَيْنِي القديس ، ويتهلّل وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت . . صدقت »

« عظنِى يا بُنى . . . ! ! »

وإن أحد الناس ليقتحم مسجد المدينة يوماً شاهراً سيفه ، يَسُبُّ ويشتم

أمير المؤمنين على ملأ من الناس ، وعلى مسمع من المدينة وحاكمها ، فيعتقله الوالى . . ويرسل لأمير المؤمنين بأمره ويقول فى كتابه : [لقد هممتُ أن أقتله] . .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فوراً .

« أمَا والله ، لو أنك قتلتَه لقَتلتُك به » . . ! !

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجلاً من عامّة الناس ، رافعاً عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تُثير غيظ الحليم . .

فما يزيد أمير المؤمنين على أن يقول للرجل :

« لَعلَّك أردتَ أن يَستفزَّنى الشيطان بِعزّة السلطان ؛ فأنالَ منك اليوم فى الدنيا ماتتقاضاه منى غداً عند الله . .

« ولكن ، لا . .

« قم ، عفا الله عنك » . . ! ! !

* * *

ومن أذكَى وأبلغ ما أدَّاه « ابن عبد العزيز » فى سبيل إنهاض رأى عام أمين على مسئولياته وقادر عليها — حَسْرُ ذلك المدِّ الطاغى لدولة الشعر والشعراء التى كانت قائمة يومذاك . .

لقد رأينا فيما سلَف من حديث ، كيف اصطنع الأمويون الشعراء لتزييف الحق ، ولتمكين سلطانهم على حساب كل القيم والأخلاقيات ، حتى لقد كانوا عقَبة كئوداً فى سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . والآن ، يتقدم البطل والقديس ، مُطْلِقاً رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه وتُبدّده ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة نقية مُشرقة بنور الحق وحده ! . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

« من أراد أن يَصحبنا ، فليصحبْنا بخمس ، أو فليفارقْنا . . .

* يرفع إلينا حاجةَ من لايستطيع رفعَها . .

* ويُعيننا على الخير بجُهده . .

* ويدلّنا على مالا نهتدى إليه من الخير . .

* ولا يغتابَنَّ عندنا أحداً . .

* ولا يَعرِضَنّ لمالا يعنيه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، أن جميع كتب التاريخ التى تنقل هذا الخطاب ، تُتبعه بقولها :

[فانفضَّ عنه الشعراء والخطباء
وثبَت معه الزّهاد والفقهاء . . . !]

أَجل . . فمعظم شعراء عصره ، وعلى رأسهم – الأخطل ، والفرزدق وجرير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها رَحِمٌ ولا قَرابة . . ! !

فهم إمّا مادحون بغير حق . . وإما هَاجُون بغير حق أيضاً . .

وهم فى كلتا الحالتين يحرِمون الرأى العام رؤية الصديق بما ينشرون من أضاليل وبهتان . .

والآن ، يجيئهم رجل عظيم ، لاحاجة به إليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر فى تأْجيجها . .

وليس له طموح ، يحتاج للشعر فى قَرع الطبول له . .

وليست له شهوات يحتاج للشعر فى تزيينها ، ولا أخطاء بحاجه لتبريرها . .

وليس له بالسلطة ولَع ، فيحتاج للشعر فى حمايتها واستبقائها . .

ثم إنه لاوقت لديه ، ولا وقت لدى أمته لهذا الهذَر العريض الذى ملأ به الشعراء ساحة العصر الأموى كله . . ! !

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابه ، ولم يعد أحد منهم يظفر بدرهم واحد من أموال الأمة ، مكافأة على مدح أو اتّقاءً لهَجاء . . ! ! !

وراح – أمير المؤمنين – يشرف بنفسه على إمداد الرأى العام بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها للولاة ، ويبعث بها إلى شتى الأقطار . .

ولقد بدأ بدحْرِ تلك الخطيئة الفاحشة التى كان الحكم الأموى يمارسها فى سفالة . وهَى لعن « الإمام على » كرم الله وجهه على المنابر . . ! !

وأمر أن يقرأ الخطباء مكان الكلمات الآثمة – تلك الآيات الطاهرة :

« ربَّنا اغفر لنا ، ولإخواننا الذين سَبقونا بالإيمان ، ولا تجعَلْ فى قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم » . .

« إن الله يَأْمُر بالعدل والإحسان ، وإيتاءِ ذى القُرْبَى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى – يَعِظُكم لعلكم تذَكَّرون » . .

لقد وضع الكذب ، ورفع الصدق . .

ودحرَ الباطل ، وآزر الحق . .

وكان ذلك إسهاماً فعّالاً فى إنهاض رأى عام حَصيفٍ وأمين . .

وأميرُ المؤمنين – عمر – لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها إدراك حاكم عادلٍ صالح فحسب . . بل إنه ليدرك كذلك جوهرها إدراك فيلسوف . . ! !

فهو لايرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالأمة ، وتبادُل

المسئولية تِجاه الدولة والمجتمع . . بل يَمضى فى اتجاه التحليل النهائى لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك متمثلاً فى ظَفر كل فرد من الناس بحقه فى اختيار اقتناعه . . وحقٍّ هذا الاقتناع فى التعبير عن نفسه ، فى غير زيف أو غُموض . . . .

ذلك أن الناس حين يُزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، أو رهبة ، فإنه يستحيل فى الوقت نفسه ، وللسبب نفسه معرفة آرائهم . .

ومادامت الآراء الصادقة هى مادّةَ الشورى وأداتَها ، فإن اختفاء هذه الآراء إذن ، يُعتبر وَأْداً للشورى وإلغاءً لمهمتها . .

وهنا تُطِل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس — حتى حين يخالفهم ويخالفونه — موضع القبول والتقدير . .

والوقائع التى تحكى وَلاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدحم بها الشهور التسعة والعشرون التى قضاها خليفة وإماماً . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التى تكاد تعطينا التعبير النهائى لهذا الولاء . .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين انشقّوا على « الإمام علىّ » كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحوّلوا بعد ذلك ، وخِلال العصر الأموى إلى فرق كثيرة ، حملَت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثُيراً ذهب منهم خلالها ألوف الضحايا . .

وبالإضافة إلى نشاطها المسلّح هذا ، فقد كان لبعضها آراء وعقائد لايزكيها قرآن ولاسُنّة . .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابدَ الأوّاب لاينسى حتى فى فِتنهم هــذه ، حقّهم فى أن يكون لهم اقتناعهم ، ثم لاينسى واجبه فى احترام هذا الحق لهم ، وواجبه فى إعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت مرتفع ،

مادام نشاطهم لايتحول إلى عمل إرهابي يستهدف سفك دماء الآخرين الذين يخالفونهم فى اعتقادهم واقتناعهم . .

بل إننا سنراه يرى بحصافته الباهرة ، أن السبيل الأمثل لصرفهم عن التآمر والإرهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ، وتمكين الرأى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل أن يتحول داخل نفس صاحبه المقهورة إلى حِقد موتور ، وقذيفة رَعْناء . . ! ! !

وهكذا ، لاتكاد إحدى تلك الفرق تتحرك فى الأيام الأولى من خلافته ، مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يُرسل إلى زعيمها هذا الكتاب :

« أما بعد . . .

« فقد بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولرسوله . . ولستَ أولى بذلك منى . .

« فَهَلُمَّ أُناظِرْك . .

« فإن يكن الحقُّ معنا ، تدخل فيه ، وإن يكن الحق معك ، نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا . . ! ! »

ويقرأ الزعيم الثائر كلمات (القديس) فيخجل من نفسه ، ويلقى سلاحه . ويُرسل مَبعوثين إلى عاصمة الخلافة ، يُجريان مع الخليفة حواراً حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويَجرى الحوار بينهما رائعاً ، صادِعاً ، تتجلّى خِلالَه موهبة – ابن عبدالعزيز – فى رؤية الحقيقة ، وتوجيه المنطق ، وامتلاك الأفئدة والعقول . . . ! ! !

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، أن تُلقى تلك الفرقة المتمردة سلاحها – بعد ماتبينت أنها فى عصر رجل جديد ينتمى لعصر النبوة والوحى . . رجل يخجل الشيطان نفسه أن يَشْغَبَ عليه ، أويتحدّاه . . ! !

على أن لهذه الواقعة – برغم دلالتها المفيضة – مثيلاً آخر يكمل الصورة التى ترسُم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الرأى وحُرْمة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطق الخوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لِدحْض هذا المنطق وإسكاته – بل رأى أن قيام منطق أهدَى ، وحجة أوضحَ وأصدقَ ، هو السبيل لإظهار الحق وإخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة أخرى من الخوارج – هم « حَرُورِيَّة المُوصِل » يَسيحون فى البلاد ناشرين آراءهم وأفكارهم . . ويكتب إليه حاكم الموصل ، يستأذنه فى قمعهم وإسكاتهم . .

أقول : نلتقى بأمير المؤمنين يجيب واليَه فيقول :

« إذا رأوا أن يَسيحوا فى البلاد فى غير أذًى لأهل الذمَّة . .

وفى غير أذًى للأمة . . فليذهبوا حيث شاءوا . .

« وإن نالوا أحداً من المسلمين ، أو من أهل الذمّة بسوء ،

فحاكمهم إلى الله . . »

بالله ، ما أعدلَه . . وما أروعه . . ! !

إنه لايرى لنفسه حقًّا – أىّ حق – فى الحجر على آراء الآخرين ولا فى الوصاية عليها . .

وهو – كحاكم – لايرى لنفسه أى حق فى التدخّل إلا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والأمة

أما دون ذلك ، فلكلِ رأيٍ حرمته ، ولكل اقتناع حقه وحريته . .

وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكَّن للشورى فى عهده تمكيناً تكاد تتقطع دون بلوغه أنفاس كل الديمقراطيات . . . ! !

ولطالما قالوا له يومئذ : إن هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس أفكاراً زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وإنّ تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل يُنذِر بسوء مآب . .

فلا يزيد القديس العادل على أن يُذكِّر مُحدثيه ومُحرِّضيه بآيات القرآن العظيم التى نهى الله فيها رسوله عن أن يَسُوسَ ضمائر الناس بالقَهر والبطش . .

« أفأنتَ تُكرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

* * *

« وما أنتَ عليهم بجبَّار » . . ! !

« إنما أنت مُذكِّر ، لَستَ عليهم بمسيْطِر » ! !

ولقد وقفتِ العواقبُ بجانبه ، وأثبَتت صدق رأيه وذكاء تقديره . فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوماً واحداً منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبدالملك ، والذين لم تَزدهم كثرة ضحاياهم إلا إمعاناً فى التحدّى وضَراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يَغمِدُون سيوفهم ، وينسَوْن طوال عهد خلافته كل مالهم عند الأمويين من تِرات ، وثارَات . . . ! !

* * *

« وثالثاً » : المال وَديعة . .

وأمامَ المشكلات الاقتصادية ، ومُشكلات الدخل والتوزيع التى تحير الدول فى كل العصور والأزمان ، لم تأخذ « عمر » حَيرة ، ولم تُعْضله أزمة . .

ذلك أنه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير أمرهما أعظمَ وأهدى مما تدبر ألمع عبقريات التنظيم والاقتصاد . .

والدولة المسلمة – يومئذ – لم يكن ينقصها المال . . إنما كان ينقصها اتباع الحق فى تقاضِيه . . واتباع العدل فى توزيعه . .

وقبل هذين ، بَعثُ حرمة الأموال العامة وقداستها فى ضمير الدولة ، بكل مسئوليها . . وفى ضمير الأمة ، بكل أفرادها . . إن موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من إيمانه بقول الله تعالى :

[وأَنفِقوا مما جعلكم مُستَخْلَفين فيه] .

فمصادر الإنتاج ، والإنتاج ، والثروة . . كل ذلك إذن وديعة الله عند الناس . . دُوَلاً ، وأمماً ، وجماعات ، وأفراداً . .

ولِودائع الله هذه حُرمتها التى تنأَى بها عن التلَف ، والسرَف والبغى ، والاحتكار . .

فإذا اكتسَبت هذه الودائع صفة أخرى ووصفاً آخر ، فصارت أموالاً عامة ، فإنّ حُرمتها وقداستها تربو وتزداد . .

ذلك أن معنى كونها [أموالاً عامة] أنها حقوق شائعة وثابتة لكل أفراد الأمة . . لكل أرملة فيها وكل يتيم . . لكل مُسنٍّ وطفل ، ورضيع . . لكل فقير ، وعاجز ، ومريض . .

وهى بهذه المثابة . مَثابة أنها – أولاً – ودائع الله ، و– ثانياً – حق الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وُثقَى . . .

و« ابن عبد العزيز » يرى نفسه مسئولاً عن إعلان هذه الحرمة وصيانة هذا الحق . .

وإنه لَيعبِّر عن ذلك فى كلماته الفاصلة :

[إنما أنا حَجِيجُ المسلمين فى مالهم] ! !

كما يُعبّر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الألباب . .

إنه يرسل خادمه يوماً ليسخّن له الماء كى يتوضأ به فى يوم شاتٍ زمهرير . .

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافىء ، فيسأله الخليفة : أين أَدْفَأْه بهذه السرعة . . ؟

فيجيب الخادم : فى مطابخ المسلمين . .

وكان – عمر – قد توسع فى إنشاء مطابخ عامة للناس يُنفق عليها من بيت المال

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض أن يَمَسَّ الماءُ جسده حتى يذهب الخادم إلى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر الضحل جداًّ من الماء . . ! ! !

وإنّا لَنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يباشر أمور الدولة ليلاً على مصباح يُؤخذ زيته من بيت المال ، فإذا عرض له فى أثناء ذلك طارئ شخصى – ولو كان لايستغرق سوى لحظات – فإنه يطفئ مصباح بيت المال ، ويُوقِد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهى من ذلك الطارئ . . ! !

ولقد يرى البعض فى هذا المسلك نوعاً من التزُّمت المغرِق . .

ولقد يرون فى إعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام الورع من رئيس دولة عظمى ، كالدولة التى كان يحكمها – ابن عبد العزيز – أمراً غير مألوف . . وربما غير مُستساغ . .

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتُهم أن الذى كان يحرك اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .

إنما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكِّل سلوكه تجاه الأموال

العامة وحُرمتها وقداستها . .

وبعد ذلك يستوى أن يكون هذا المال . عَدْلَ درهمٍ من زيتِ مصباح . . أوملء حجرةٍ فضةً وذهباً . . ! !

إنه يذكُر ، ويذكّر الناس دائماً بالآية الكريمة :

[وَمَنْ يَغْلُلْ ، يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة] ! !

والغُلول عنده فى أحقر الأشياء ، مِثله فى أكثرها وأخطرها . .

وفيما يستأثر به لنفسه ، مِثله فيما يجود به على غيره ! !

بل حتى الهدايا ، رآها غُلولا ، أو شيئاً يشبه الغلول . .

جاءته يوماً هدية ، فاعتذر عنها — فقيل له : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية . .

فأجاب قائلاً :

[لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رِشوة] ! !

* * *

إن موقفه من أموال الأمة لَعجيب . ثم عجيب . . ! !

وإن لها فى فؤاده الذكى التقىّ لَحرمة تضاهى حرمة الإيمان ذاته ، وحرمة التوحيد . . ! !

يطلب منه أحد ولاته الإذن بمزيد من الشموع التى كانت دار الإمارة تُضاء بها ، ويُضاء بها للأمير وهو فى طريقه إلى المسجد لصلاة العشاء والفجر . .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عَهِدتُك يا ابن أم حَزم ، قبل أن تكون والياً ، تخرج

من بيتك فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح . .

« ولَعمرى ، لأنتَ يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى فَتائِل أهلك ما يُغنيك » ! ! !

ويكتب إليه والٍ آخر ، يطلب المزيد من الأقلام وورق الكتابة ، فيجيبه الخليفة أيضاً :

« إذا جاءك كتابى هذا ، فأَرِقَّ القلم ، واجمع الخط ، واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة . .

« فإنه لاحاجة للمسلمين فى فَضل قولٍ أضرَّبببيت مالهم . . » ! !

هنا بيت القصيد . . [أضَرَّبببيت مالهم] ! !

فالمشكلة ليستْ مشكلة قليل أو كثير من الشموع والأقلام والأوراق . . فما من دولة يعجزها أن تملأ أرضها شموعاً وأقلاماً وورقاً . .

إنما المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الأموال وقداستها . . هى تجنب التفريط فيها . . هى درجة الولاء لمسئولية رعايتها وحفظها . . وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها مرفوضاً مهما تكن ضآلة مقداره . .

ذلك أن الإسراف الذى يتمثل اليوم فى شمعة أو قلم . . سيتمثل غداً – إذا استهين بأمره ، فيما هو أوخم عاقبة وأسوأ مصيراً . ! !

* * *

هكذا أرسى لحرمة الأموال العامة قواعد راسخة من الإجلال والتقديس .

ونعود إلى موقفه من« مشكلة الدخل والتوزيع »

قلنا : إن الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء . . إنما كان ينقصها

تقصى الحقّ فى جمعه . . والعدل فى توزيعه . .

ففيما يتعلق بالدخل . . نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف والسَّرَف ميزانية الدولة ، راحوا يُعوّضون ذلك بجمع المال بوسائل غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة . .

فأهل الكتاب الذين يعتنقون الإسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة الجزية فوراً . . لكن الدولة الأموية تأبى فى ذلك حكم الإسلام ، وتُبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مسوغة ذلك بأنهم إنما يسلمون فِراراً من الضريبة . . ! !

ويجىء الخليفة العادل فيرفض هذا التسويغ الزائف ، ويُعلن أن فرح الإسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الأرض مالاً وذهباً . .

ويُطلِق أمير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« إن الله بعث — محمداً — هادياً ولم يبعثه جابِياً » ! !

ولقد أرسل إليه واليه على العراق « عدىّ بن أرطاة » يقول : [إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجاً ، حتى خشيت أن يقل الخراج] . .

فيجيبه الخليفة المقْسِط العظيم :

[والله ، لَوددْتُ أن الناس كلهم يُسلمون ، حتى نكون
أنا وأنت حرّاثين نأكل من كَسْبِ أيدينا . ! ! !]

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التى كان الخلفاء السابقون قد فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

هاهو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » .

« أما بعد . .

« فقد كتبتَ إليّ تذكُر أنك قدمت اليمن ، فوجدتَ على أهلها ضريبة من الخراج ثابتة فى أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال . . إن أخْصَبوا ، أو أجْدَبوا . . إن حيوا أو ماتوا .

« فسبحان الله رب العالمين ! ! ثم سبحان الله رب العالمين ! !

« إذا أتاك كتابي هذا ، فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفُه من الحق . .

« واعلم أنك إن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كَتَم[1] . فقد علم الله أنى سأكون بها مسروراً مادام فى ذلك إبقاء على الحق والعدل » . . ! ! !

ولعل بعضنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن « الدَّخْل » أن نشير إلى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرَّة تُضاعفه وتُنمّيه ، إذا بنا نُطرِى سياسة الخليفة تجاه الدَّخل العام ، لأنه ألْغىَ الكثير من تلك المصادر والموارد . . ؟ !

ولكن ، ماحيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون — ابن عبدالعزيز — . ؟ !

إن المسألة عنده ليست مسألة كثرة . . بل مسألة وَفرة . . .

والوفرة ، تكون فى بركة الحلال المشروع ، لا فى كثرة الحرام المغتصَب . .

ولعل من واجبنا قبل أن نغادر هذه النقطة من الحديث ، أن نقول

(١) الكتم . نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

لبعض المؤرخين الذين يردون اضطراب مالية الدولة بعد موت أمير المؤمنين – عمر – إلى سياسته الضرائبية هذه . .

من واجبنا أن نقول لهم ! أغلب الظن أنكم مخطئون . .

فلقد سارت الأمور فى عهده كله على أتم نَسق . ولم تكن تُنذِر بأى عجز أو اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك تُرهِص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

إنما اضطربت فيما بعد ، حين غاب – البطل – عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسَّرف والفساد ، وسياسة السطو مرة أخرى تعبث وتمرح ، بعد أن رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القدِّيس . . ! !

* * *

على أن – الخليفة – حين ألغى الضرائب الظالمة ، أتاح فى نفس الوقت مورداً ثرًّا للدولة ، حين ردَّ إليها جميع الأرض والثروة التى كانت تحت أيدى الأمراء .

ومورد آخر ، اعتبره أمير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل وأثراها . . ذلكم هو وضع كل درهم فى مكانه وضرورته . . وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سَرَف . .

أجل . . لقد كان – ولايزال – وضع المال فى مكانه الصحيح وداخل ضرورته الملِحّة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر . .

ولقد التزم – عمر – هذا النهج التزاماً يكاد يكون مطلقاً مع نفسه ، ومع أهله ، ومع ولاته ، ومع ذوى قرباه ، وأصدقائه ، والناس أجمعين .

هاهو ذا أحد المقربين إليه ، الأثيرين لديه – عنبسة بن سعيد –

يذهب إليه يوماً ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« ياعنبسة . .

« إن يكن مالك الذى عندك حلالا ، فهو كافيك .

« وإن يكن حراماً ، فلا تُضيفَنَّ إليه حراماً جديداً . .

« أخبرنى ياعنبسة . .

أمحتاج أنت . . ؟ لا . .

أفعليك دين . . ؟ لا . .

« إذن ، فكيف تطمع فى أن أعَمد إلى مال الله فأعطيكَهُ فى غير حاجة . . وأدَع فقراء المسلمين ؟ !

« لو كنتَ غارماً ، لأديت عنك غُرمَك . . أو محتاجاً لأمرت لك بما يصلح شأنك . .

« فليكن لك فى مالك غَناء . .

واتق الله – وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل أن يحاسبك أسرع الحاسبين » . . ! ! !

إن هذا الذى قاله لصديقه الحميم « عنبسة » كان يقوله لكل من يسأله ماليس له بحق . . على أن هذا الذى هو حق فى تقديره ، لم يكن يتمثل عنده إلا فى ضرورات العيش والحياة .

وهكذا أتيح له أن يحول شَهقات البائسين إلى بسمات متهللة ، وفرح غامر ، دون أن يحول السَّرَاة إلى طبقة بديلة للبائسين .

إن كل ماصنعه بهم أنه أخذ منهم تَرفَهم وتُخمتهم ، ثم تركهم يحيون كراماً متواضعين . . . ! !



وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، إلى التوزيع . . فكيف راح الحاكم القديس يوزع أموال الأمة ، وأين كان يضعها . . ؟ ؟

لقد رد المال إلى وظيفته الحقيقية ، وإلى دَوْره الأصيل ومسئوليته الأولى فى خدمة الأمة وتغطية احتياجاتها .

لقد بدأ . فرسم حدود الكفالة الشاملة التى ستنهض بها الدولة تجاه مواطنيها جميعاً فرداً ، فرداً . . وحدد بالتالى مسئولية بيت المال تجاه تغطية هذه الكفالة كلها .

نرى ذلك فى كتابه إلى وُلاته :

« لابد لكل مسلم مِن :

* مسكن يأوى إليه . .
* وخادم يكفيه مهنته . .
* وفرس يُجاهد عليه عدوه . .
* وأثاث فى بيته . .

« فوفروا ذلك كله . .

« ومن كان غارماً ، فاقضوا عنه دينه » . . ! ! !

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا . . لاتعنى قَصْرَ هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم ، إنما استعمل هذا الوصف لِغَلْبته لا أكثر . . ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعاً — مسلمين وأهل كتاب . . . .

وأمر الخليفة ولاته أن يبدأوا بتغطية حاجات أقطارهم . وما فاض وبقى يُرسَل إلى الخزانة العامة . . ومن قصر دخل إقليمه عن تغطية حاجات

أهله ، أمدّه الخليفة بما يغطّى عجزه .

« استوعِب الخراج وأحرِزه فى غير ظلم . .

« فإن يك كافياً للناس ، فحسناً . . وإلا فاكتب إلىّ حتى أبعث إليك من المال ماتوفر به للناس أُعطياتهم » . . ! !

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشئ فى طول البلاد وعرضها دُور الضيافة ، يأوى إليها المسافرون وأبناء السبيل . .

ومضى ، يرفع مستوى الأجور الضعيفة . .

وكفَل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدى الناس أجراً . .

وسخَا علَى ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامِّهم وحتى لاتضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام . . . ! !

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضى له أموره على حساب الدولة . .

ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة . .

وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم . .

وافتدى أسرى المسلمين جميعاً ، وأغدق عليهم العطاء . .

وكفَل اليتامى الذين لاعائل لهم فى جميع أقطار دولته العريضة المترامية . .

وكما فعل جده العظيم – عمر بن الخطاب – من قبل ، فعل هو أيضاً ، فأمر أن يُفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد

فطامـــه ، حتى لاتتعجل الأمهات فِطام الرضَعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قُواهم . . ! !

ومن أجل ألاّ يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منَع أن يجمع أحد بين عَطاءين . .

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب . ! ! !

* * *

وهكذا تقسَّط الناس جميعاً فى عهده العظيم ماأفاءه الله عليهم من خير ورزق .

وإنا لَنكاد نَذهل أمام ذلك الإجماع التاريخى الذى يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء فى عهد القديس الورع ، « عمر بن عبدالعزيز » ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيراً يأخذها — ويبسط يده إليها . . ! ! !

ذلك أن عدل — ابن عبدالعزيز — لم يكف الناس حاجاتهم فحسب . . بل ملأهم شعوراً بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ، وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » ! ! !

« ورابعاً » : وحدة الأمة وسلامها . . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعاً ممزقاً يتربص بعضُه ببعضِ الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . ! !

فخلفاء بنى أمية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحذ العصبية والقبلية والإقليمية ، فيختص أحدهم بعطفه القيسية ، ويختص آخر اليمانية . . ويميز أحدهم أهل الشام . . ويميز آخر أهل العراق . .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة إلى القبائل وزعمائها ؛ فظهر من ينادى بسيادة أهل الحضَر – وفى مواجهتهم ، ظهر من ينادى بسيادة أهل البادية . .

كذلك كان الخلفاء الأمويون قد جنَحوا للهبوط بمكانة المسلمين من غير العرب – أولئك الذين عُرفوا باسم « الموالى » ففرضوا عليهم الجزية ظلماً ، وحرموهم الحقوق التى يكفلها لهم الإسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الإسلام عالياً فى كل مجال . . !

كذلك كان هناك الفِرَق الكثيرة من شيعة وخَوارج ومُعتزلة منهم من يحمل السلاح فى وجه الدولة وفى وجه خصومه فى الرأى ومنهم من لايحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . . ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحِجاج . .

* * *

ورِث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتُّت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة الظافرة نفخة مباركة نفَتْ عنه فى لحظة كل هذه الخبائث . وطهرت – لاشكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب – بل ضميره وروحه أيضاً – فشهد مجتمع الإسلام فى أيامه إخاءً وثيق التراحُم . . وأخذ كلٌّ حقه . . وقنع كل بحقه . . ! !

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .

وأما الموالى ، فقد وضع عنهم إصْرَهُم ، وصحَّح وضعهم .

وأما النزعة القبلية والإقليمية ، فقدطواها بيمينه . .

ولم يعد هناك قيسيون ويمنيون . . ولا عراقيون وشاميون . . ولا عَرب ومَوالى . .

لقد عادت رَحِمُ الإسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة فى قول الله تعالى :

[إنما المؤمنون إخوة] . .

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبدالعزيز » لوحدة الأمة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد إيمانه بالوحدة وفهمه لها إلى وضع الأقليات فأكد دمجها فى جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا فى رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« إن ساروا فى الأرض دون إساءة لأهل الذمة ، وللأمة ، فدَعْهم » . .

وفى كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاة بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الإسلام – أهل الذمة – توكيداً لما فى ذمّه المسلمين لهم من عهد وميثاق . . ! !

لقد كانوا إلى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت . ويقبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى أمر الأمة حتى أصدر أوامره الحازمة بألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التى شرعها الإسلام لقاء حمايتهم وتوفير الأمن لهم .

وإن موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثَل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم وحدة الأمة كأمَّة . بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها . . ! !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءاً كبيراً من كنيسة « يوحنا » ، ليقيم عليه امتداد المسجد الأموى المشيد . .

وحين ولى – عمر بن عبدالعزيز – الخلافة . شكا إليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم . .

تُرى ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟

إن الجزء الذى تهدَّم من الكنيسة قد صار مسجداً . .

وإن أقصى ما يستطيعه حاكم عادل فى مثل هذا الموقف أن يعطى تعويضاً سخيًّا ، أو أرضاً بديلة . . .

لكن « ابن عبدالعزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف عن أساليبنا . .إنه أسلوب قديس جليل ! !

وهكذا أصدر أمره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ، وإعادة الأرض التى أقيم عليها إلى الكنيسة . . ! !

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لإقناع أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين ، أصدر أمراً جديداً حدَّد فيه اليوم بل الساعة التى يجب أن تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . ! !

ولم يجد العلماء سبيلاً لإنقاذ المسجد سوى أن يُفاوضوا زعماء الكنيسة فى دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقاً يرضَوْنه . ويتنازلوا بموجبه عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفد من الفريقين لإبلاغ الخليفة نبأ الاتفاق .

فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . ! !

* * *

بم إذن نُفسِّر ذلك الموقف الذى اتخذه من بعض أهل الكتاب من النصارى . حين أمر أن يعاملوا معاملة خاصة فيها تضييق عليهم ، وإحراج لهم . ؟ ؟

إننا فى ضوء موقفِهِ العام الذى رأيناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيراً إلا أن يكون قد دعاه إليه سلوك بعض أُلئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التى كانت تشنّ باسم الصليب — حروباً عدوانية على دولة الإسلام . . .

يُزَكِّى ذلك — فى رأينا — تلك الرسالة التى حملت أوامره بشأن أولئك النصارى . فقد ركّزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد فى دورهم من سلاح . . مما يومىء إلى وجود مؤامرة كانوا يهمّون بها ، على أنه فى موقفه من هؤلاء . لم يأمر باتخاذ أى إجراء عنيف .

كل الذى أمر به أن يُميَّزوا بلباسهم الخاص . . وحتى هذا الإجراء يشير إلى الريبة التى داخلت نفسه تجاههم ، فأراد أن يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم . . .

فإذا جاوزنا هذه الفئة التى فقدت ولاءها للدولة وللمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامّة موقف الحارس الأمين لحقوقهم ولعهودهم ولكراماتهم .

لقد أثار موقفه من الأديان ومن حقوق الأقليات فى دولته الراشدة انبهار وإعجاب العالم الخارجى من حوله ؛ حتى إن إمبراطور الروم

« ليو الثالث » وقد كان خصماً عنيداً لدولة الإسلام ، لايكاد يبلغه فيما بعد نبأ وفاة أمير المؤمنين حتى يبكى بكاء مُرًّا ، أذهل حاشيته وأساقفته ، فسألوه فى ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من أصدق وأجمع ماقيل فى تأبين أمير المؤمنين :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعدله مثيل . . ! !

« وليس ينبغى أن يعجَب الناسُ لراهب ترك الدنيا ليعبد الله فى صومعته . .

« إنما العجب لهذا الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها . . !

« ولقد كان حَرِيًّا أن يُعجَّل به ؛ فأهل الخير لا يلبثون مع أهل الشر إلا قليلاً » . . ! !

أفكان هذا الامبراطور ليشهد فيه هذه الشهادة لوعرف عنه أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق أهل الكتاب فى عهده . . ؟ ؟

بل هل كان كبير أساقفة الرومان سيخِفُّ مسرعاً حين علم بمرض الخليفة ، ليقيم إلى جواره يُطببه ويعالجه . . ؟ ؟

* * *

ونعود للعمل الذى عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ؛ لنرى كيف كان فى الوقت نفسه عملاً فى سبيل سلامها الداخلى :

فالسلام الداخلى ، إنما يتوفر بالقدر الذى يتجمع فيه شمل الأمة وتتآخَى أرواح بنيها . .

ولقد أنعم الله عليه وعلى أمته بما تمنى من وحدة وسلام . .

فماذا عن السلام الخارجى ووضع أوزار الحروب التى كانت مشبوبة

الأوار خارج الحدود . . ؟

لقد رأيناه يبدأ فى الساعات الأولى من خلافته بإصدار أمره للجيش الذى أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناه يفتدى جميع الأسرى على كثرتهم ويردهم إلى ديارهم ووطنهم . .

ثم نراه يضع حداً لكل الأعمال العسكرية التى كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الإسلام قد صار عزيزا منيعاً بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة ألا يتحرك بعد اليوم لقتال إلا دفاعاً عن حدود الدولة إذا هوجمت ، وعن سلامة الأمة إذا تعرضت للأخطار . .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التى أرسلها إلى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم أكثرهم متأثرين بما كان قد ترامى إليهم من أنباء ورعه وزهده ، وعظمته وتُقاه . .

كذلك كتب إلى البربر ، فى أفريقية . . يدعوهم إلى الإسلام فدخلوافيه أفواجاً . .

وكتب إلى ملوك ماوراء النهر ، فأسلم أكثرهم ورفعوا راية الإسلام . .

أليس رجلاً مباركاً ذلك القديس . ؟ ؟

* * *

وخامساً : أسلوبه فى التنفيذ . .

ماذا كانت الأمة ستُفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفاءته فى التنفيذ موازية لكفاءته فى حمل المسئولية والإخلاص لها . . ؟ ؟

هنا نلتقى بجانب من أبهى وأغنى وأقوى جوانب شخصية ذلك القديس

الفطِن الحازم الأريب . . نلتقى به صاحياً يقظان . . . !

إن كل ساعات اليوم الأربع والعشرين منذورة لمسئولياته . .

ليس منها سوى الوقت الذى تستغرقه صلاته وعبادته ، والساعتين أو الثلاث التى يمنحها لنومه وراحته . .

أما بعد ذلك ، فلا وقت لديه إلا لمسئوليته المقدسة .

وله أسلوب فريد فى إنجاز هذه المسئولية وتنفيذ منهجها . .

فاللين ، والحزم . . والأناة ، والحسْم . . والإشراف العميم ، واللامركزية . . والمطاولة ، واليقظة . . كل هذه تعمل « مجتمعة » لا « مختلطة » – فى اتساق فذّ وتكاملٍ عجيب . . ! !

يبلغ به التعب يوماً أشده ، فيسأله بعض خاصته أن يريح نفسه ، فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » . . ؟

فيقولون له : تنجزه فى الغد . .

فيجيب : « لقد فدحَنى عمل يوم واحد حتى سألتمونى أن أريح نفسى ، فكيف إذا اجتمع علىّ عمل يومين » . . ؟ ؟

إنه لا يُجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل أسبوع . . بل لكل يوم مسئوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوماً على آخر . لأن لكل يوم مُزدَحمه وأحماله . . ! !

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التى تنتظمها دولته الواسعة . نداء النَّجْدَة . . لاتهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم فى أدنى الأرض وأقصاها إلا ألْفَتْه ، وكأنه فى انتظارها وحدها . . . ! !

وصِغار الأمور عنده مثل كبارها . . لها الاهتمام نفسه والمسارعة نفسها . .

حمل إليه بريده يوماً رسالة من الجيزة بمصر . .

أما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشكو لأمير المؤمنين . أن لها حائطاً متهدماً لدارها يتسوَّره اللصوص ويسرقون دَجاجها ، وليس معها مال تنفقه فى هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو فى عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر « أيوب بن شرحبيل » هذا الخطاب . .

« من عبدالله عمر أمير المؤمنين ، إلى أيوب بن شرحبيل

« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فإن فرتونة السوداء كتبت إلىّ تشكو قصر حائطها ، وأن دجاجها يسرق منها ، وتسأل تحصينه لها .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فاركب بنفسك وحصنه لها » . . ! !

والبريد نفسه الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتاباً آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء .

« سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرتِ فيه من قصر حائطك حيث يُقتحَم عليك ويُسرق دجاجك . .

« وقد كتبت إلى « أيوب بن شرحبيل » آمره أن يبنى لك الحائط حتى يحصِّنه مما تخافين إن شاء الله » . . ! !

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :

« فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها ، فإذا هى سوداء مسكينة ، فأعلَى لها حائطها » . . ! !

هذا خليفة قديس لن تُفلت من رحمته وحسناته وعدله وأُبوَّته شاردة ولاواردة . . ! !

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شىء . .

انظروا . . ! !

إنه يَكتب لواليه على مصر أيضاً .

« أما بعد . . .

فقد بلغنى أن الحَمالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ماتُطيق . .

« فإذا جاءك كتابى هذا ، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل . . ! ! »

بل إنه ليبصر فى جولاته أناساً يحملون مقارع ، فى أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر فى مجلسه حتى يوقع قراراً يحرم استخدام هذه المقارع . . ؟ !

وتأتيه يوماً سَلّتانْ كبيرتان مملوءتان من رُطب الأردن فيسأل : ماهذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الأردن إلى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلاَم جىء به . . ؟

فيقال له : على دواب البريد . .

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموها : فوق طاقتها . . بيعوا الرطب ، واشتروا بثمنه علفاً لدواب البريد التي حملته . . ! !

* * *

ويبهرنا لِينُه ، وأَناتُه ، وسعة صدره التي لم تعرف حدوداً . .

وفى تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة الأصيلة – هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس بل تعنى القيام بحقهم فى بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف . .

وإنا لَنتسمَّع هذا النبض الحنون النبيل من خلال دعائه الذى كان يَضرع به إلى الله كثيراً :

« اللهم زِد مُحسِنَ أمة محمد إحساناً ، وأَرْجع مُسيئهم إلى التوبة . . اللهم ، وحُطَّ من أوزارهم برحمتك » ! !

إنه لا يتحسس الأخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها فى رحمة وحنان .

وإن أخطاء الناس لَتشغله إلى المدى الذى رأيناه حيث لاينظر إليها كحاكم ؛ بل كعابد . يصلى من أجل مغفرتها وإنهاض ذويها . . ! !

وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل إطار ذاته – كخلق شخصى له فجسب . . بل يحولها إلى فلسفة للحكم ومنهاج .

ولطالما كان يوصى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك
دون الكيِّ فلا تكوِيَنَّه أبداً . . ! ! »

ولقد كان من حق حكام الأقاليم قبل عهده أن يُنفذوا حكم القتل فيمن يشاءون عدلاً ، أو ظلماً . .

فلما وَلِى ، حرمَهم هذا الحق ، وأصدر أمره ألا ينفذ حكم القتل فى أحد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رأيه . .

وراح يتجنب كل عنف وقسوة قائلاً :

« والله لا أصلح الناس بهلاك دينى » ! !

* * *

على أن رِفقه وأناته اللذين وسعا أمته جميعاً ، لم يكونا مطمعاً يُغرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من تُسوِّل له نفسه عبثاً ، أو فتنة . . ! !

ولقد كانت فضائله كلها مهيأة على الدوام لحماية مواقعها وأداء دورها . .

فلا يجىء موقف يتطلب الرحمة ؛ فيجدها غافية . . ولا موقف يتطلب الحزم ؛ فيجده كَلِيلا . . ! !

ولقد نراه مع عامّة الناس ينتفض كالعصفور تواضعاً وحناناً ورحمة . . . ثم نراه مع الجبارين أسداً يزأر . . وجَلَالاً يُهاب . . ! !

بعد أن يئس الأمراء الأمويون من استرداد إقطاعاتهم وثرواتهم بالضراعة والحيلة ، أغرَوْا واحداً منهم وهو– عمر بن الوليد بن عبد الملك – بالكتابة إليه مهدداً متوعداً . . فكتب يقولُ :

« أما بعد ، فقد أزْريتَ بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرتَ بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يُوصل ، وعملتَ بغير

الحق فى قرابتك . وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجَوْراً وعدواناً .

« فاتق الله يابن عبد العزيز ، فإنك تُوشِك ألا تطمئن على مِنبرك » . . . ! !

وفى اللحظة التى يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خُلُق الحزم الصارم ليؤدى دوره تجاه الباطل الذى يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبُهتانه . . ! !

ويكتب أمير المؤمنين ردَّه :

« من عمر أمير المؤمنين ، إلى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

أما بعد ، فعهدى بك أنك كنت جباراً شقيًّا ، والآن تكتب إلىّ تتهمنى بالظلم ، لأننى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين ماهو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . . ! !

« ألا إن شئت أخبرتك بمن هو أظلم منى وأترك لعهد الله . . ! !

إنه أبوك الوليد ، الذى حين كان خليفة للمسلمين استعملك عليهم صبياً سفيهاً تحكم فى دمائهم وأموالهم . . ! !

« فويل لك ، وويل لأبيك – ما أكثر طُلّا بكما وخُصَماءكما يوم القيامة . .

« وأظلم منى وأتركُ لعهد الله . من استعمل الحجاج بن يوسف . يسفك الدم الحرام .

« وأظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبى مسلم على جميع المغرب . يَجْبى المال الحرام . . ويسفك الدم الحرام . .

« ألا رُوَيْدَكَ يابن الوليـد . فلو طالت بى حياة لأتفرغَنَّ لك ولأهل بيتك حتى أقيمكم على المحجَّة البيضاء . . ! ! ! ! »

لنضع خطابه السابق إلى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا إلى ذلك الأمير الأموى المتجبر ؛ لنرى فى غير تعليق كيف كانت تعمل فضائل هذا الإنسان الباهر الجليل . . ! !

إن الرجل الذى يجلس للناس على الأرض وهو خليفة . .

الإنسان ، الوديع ، العذْب ، يتحول إلى إعصار مُدْمدِم أمام جبروت الباطل أنَّى يكون . . ! !

ومثل هذا الموقف من الأمراء المتمردين . موقفه من امبراطور الروم . .

لَقد أُخبر أن أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية وكان مقاتلاً شديد البأس ، قد وقع أسيراً فى أيدى الرومان . وحُمل إلى الامبراطور الذى حاول إكراهه على الخروج من دينه الإسلام ورفض الأسير . . فأمر الإمبراطور أن تُسْمَل عيناه . .

بلغ النبأ – أمير المؤمنين – فهبَّ حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلمه وكتب إلى ملك الروم :

« أما بعد . .

« فقد بلغنى ماصنعت بأسيرك فلان . .

« وإنى أقسم بالله . لئن لم تُرسله إلىّ من فورك لأبعثن إليك من الجند مايكون أولهم عندك وآخرهم عندى » . ! !

ويعود الأسير إلى وطنه وأهله . . ! !

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لاتتجلىَّ فى الإنجاز وحده – بل فى رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل . .

ولو تتبعنا كتبه إلى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظرته وفطنته مايبهر الألباب .

فلنقنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

* « اتبعوا ماأحل الله وحرِّموا ماحرم واعترِفوا بحقه تعالى ، واحكمو بما أنزل . .
* « افتحوا للمسلمين باب الهجرة . .
* « دعوا الناس يتجروا بأموالهم فى البر والبحر ، لاتحولوا بين عباد الله ومعايشهم . .
* « أبيحوا أرض الحِمَى للمسلمين عامة ، وليكن حق الأمير فيها كحق واحد منهم . .
* « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر . .
* « كافحوا التطفيف فى المكيال والبَخْس فى الميزان . .
* « لاتتَّجروا وأنتم وُلاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثَر ، وأصاب ظلماً ، وإن حرص ألاَّ يفعل . .
* « لاتأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذى شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله – لاأفرق بين مسلم وأهل كتاب . .
* « ضعوا السُّخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل أجرهُ . .
* « ردوا المزارع لما خُلِقت له ، فإنما جُعلت لأرزاق المسلمين كافَّة . .

* « لاتتخذوا على أبوابكم حُجّاباً يمنعون ذوى الحاجات والمظلومين . .
* « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدَعوا الناس يقول أحدهم ، أنا مُضَرِيّ ، ويقول الآخر : أنا يمنى فالمؤمنونَ إخوة . .
* « الخيل عُدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض فى غير حق . .
* « امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى . .
* « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون أعداءكم . .
* « سدِّدوا المخالفين ، وبصِّروهم ، وارفُقوا بهم ، وعلموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضلا . . وإن أبوا فتَحرَّوا الحق فيما تُنزلون بهم من عقاب . .
* « أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولّاكم الله أمره ؛ فإن لكم فى إصلاحهم أكثر مما لهم . ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم . .
* « تعاهدوا حُجَّابكم ورؤساء حرسكم وشُرَطِكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لايرتكبون غَشْماً ولا ظلماً . .
* « لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم ؛ ولابحديثهم عنكم . وضعوا أعينكم على الذى هو أبرُّ وأتقى وأخلصوا لله رب العالمين . .
* « اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة ؛ فإن من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع . .

* « تحرَّوْا الحق ؛ ثم اعملوا به بالغاً مَّا بلَغ بى وبكم . .
حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا . . » ! ! . .

هذا نموذج من أوامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره ومشاعره وإرادته .

يقظة تعطى الجزئيات الاهتمام نفسه الذى تعطيه الكليات ! !

وبهذا المنهج الذى يستمد من قداسته ، وفطنته ، وعزمه ، قَطع ابن عبد العزيز طريقه وَثْباً ؛ متخذاً من الإنجاز وسرعة الحركة طابعاً لمسيرته المباركة . .

لقد كانت مسئوليته عن كل شىء واضحة وضوح الشمس ومشكلات الدولة والأمة لاتنتظر من يكشف عنها أو يفلسفها ،بل تنتظر من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، فقيم إذن يكون تَلفُّت أو انتظار . . ؟ !

ومن هنا انطلق يُنجز ؛ وينجز ، وينجز . مُعطياً كل مسئول مسئوليته ، آمراً إياه أن يمضى بها فى شجاعة وحكمة وأمانة .

أجل ، لقد كان يَنهى ولاته عن أن يكونوا إمَّعات أومتواكلين ؛ هيَّابين . .

وإنه لَيرضَى أعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مُقبلين على مسئولياتهم فى شجاعة ، مُنجزين إياها فى حزم ؛ مُيمِّمين وجوههم وأفئدتهم صوب الحق وحده ؛ لايعدلون به أحداً حتى الخليفة نفسه . .

« إذا أرسلتُ إليكم أمراً يخالف الحق » .

« فاضربوا به الأرض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » ! ! !

وكان يعينهم على قهر التخوف من المسئولية بمنحهم قدراً كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال . .

أرسل يوماً إلى أحد ولاته أمراً ، فأرسل الوالى يستوضحه ببعض التفصيلات . فتجهّم الخليفة وكتب إليه من فوره :

« أما بعد . .

فأراك لو أرسلت إليك : أن اذبح شاة ووزع لحمها على الفقراء ،

لأرسلتَ تسألنى : ضأناً أم ماعزاً .؟

« فإن أجبتُك . . أرسلت إلى تسألنى :

كبيرة ، أم صغيرة . ؟

« فإن أجبتك ، أرسلت تسأل : بيضاء . أم سوداء . ؟ ! !

« إذا أرسلتُ إليك بأمر . فتبيَّن وجه الحق فيه . ثم أَمْضِه » . . ! !

إنه لا يريد أن تتلكأ حقوق الناس وتتعثر فى شكليات عقيمة .

إنه يجد نفسه مسئولاً عن كل خطأ ، أو مظلمة تبقى دقيقة من الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الأيام وثباً وراء كل خطأ حتى يصلحه ، ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . ! !

وبمثل هذا الحسم والإنجاز . كان يغير كل وال ، أو قاض ، أو أمين أو رئيس شُرطة . أو مسئول . لاتثبت التجربة السريعة الصادقة أنه فى مكانه . . وإذا خُدع فى أحد فظنه للمنصب أهلاً . ثم تبين له أنه غير أهل . لم يُنظِره لحظة تحت تأثير حرج أو مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وإنجازه بلاد الدولة إعماراً وحياة ، وفجَّرت طاقات الناس تفجيراً .

وعلى الرغم من أنه كان يرى القدوةَ آلتى يقدمها للناس جميعاً . تفعل فيهم فعل السحر ، وتجرى من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم فى العروق ، فإنه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . . فتراه يتنقل

فى مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، ويفحص .

ولم تكن فى الحياة بأسرها متعة تشيع فى روحه البهجة والغبطة مثلما يرى أو يسمع أن ظلماً قد دُحض . . وأن عدلا قد نهض . . وأن حقًّا قد رُدَّ لصاحبه فى غير جهد منه ، أو إلحاف . ! !

ركب يوماً فى إحدى جولاته هذه ، مصطحباً معه مولاه « مُزاحِم » حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبرها قوافل المسافرين . .

وهناك راح وهو متنكر فى ثيابه يسأل الغادِين منهم والرائحين .

ومن بين هؤلاء رجل فى إحدى القوافل ، اقترب منه – عمر – وسأله : كيف تركتَ الناس فى بلدك . . ؟

فقال الرجل : إن شئت جمعتُ لك خبرى ، وإن شئت بَعَّضتُه تبعيضاً . ! !

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه . . أى ، أوْجِزه . .

قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم
منصور . . والغنىُّ موفور . . والفقير مجبور» . .

وسارع – عمر – بالانصراف بعيداً عن محدثه قبل أن تشى به انفعالاته ودموع الشكر التى راحت تنحدر من مآقيه . .

وولَّى مسرعاً . مسرعاً . وقلبه الشكور ، ولسانه الذَّكُور يضرعان إلى الله بآياتِ الحمد والثناء .

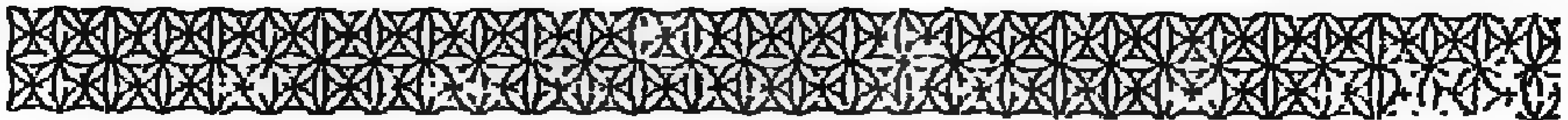
والتفت إلى « مزاحم » وقال له :

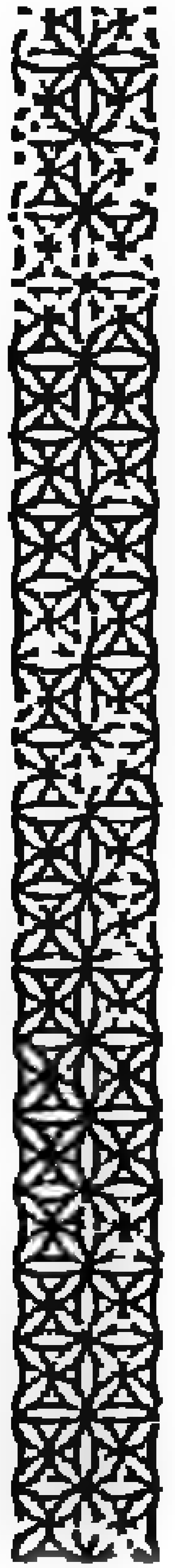
« والله ، لَأنْ تكون البلاد كلها على ماوصف هذا
الرجل ، لأَحبَّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس » . . . ! !

الفصل الثامن

الرّحيل

[. . وإن أَمُتْ ، فما أنا على صُحبتكم بحريص . .] ! !





ثَقُلَت الدنيا على البطل . . كما ثقُل هو عليها ، فناءت تحت ضغط ورعه الصارم . وعدله الحازم . .

لقد عقد عزمه على أن يحمل مسئولية الحكم بضمير« عمر بن الخطاب » فى زمن مختلف جداً ، بل مُناقضٍ جداً لزمن « عمر بن الخطاب » . . . ! !

كان « ابن الخطاب » يحيا فى امتداد عصر الوحى والنبوة ، ومعه أعوان كثيرون على الحق والعدل . .

أما « ابن عبدالعزيز » ، فيحيا فى ميراث مُلْك عضوض وسنواتِ ترفٍ وانحلال وضياع ، وليس معه على الحق أعوان . إلا قلة نادرة تاهت فى الزحام . . ! !

* * *

ولقد نجح فيما عقد عليه عزمه نجاحاً لايُعرف له نظير . . بيد أن هذا النجاح الخارق تمَّ على حساب كل ذرَّة ؛ بل كل جُزَيْءٍ من ذرة فى عافيته وحياته . .

وحين نستعرض « برنامج » يوم من أيام حياته ، لا يأخذنا العجب لقصر مدة خلافته وعمره . بل يأخذنا العجب لأنه بكل . هذا الجهد المميت ، استطاع جسمه أن يتحمل ويقاوم ويستمر فى الحياة – على هذه الصورة – عامين وخمسة أشهر . . ! ! !

إن الجسد الذى كان – قبل الخلافة – يحيا ، وتترعرع خلاياه على أهنأ مافى الدنيا من غذاء ونعيم ، حُرِم فجأة لحظة استخلاف صاحبه ، لامن ذلك النعيم فحسب ، بل ومن المقومات الأساسية واللازمة لحفظ الحياة . مجرد الحياة . .

ثم هو مع هذا ، لايبذل جهداً متكافئاً مع فاقة صحته ، وضمور جسده . بل يبذل جهد رجل يرى نفسه مسئولا مسئولية مباشرة وكاملة عن كل فرد من مواطنى دولته العريضة المترامية .

ثم هو لا يعيش المشكلات الطاحنة للأمة والدولة وحسب ، بل يعيش فى استغراق رهيب مشكلتَه مع نفسه ، ومع الموت ، ومع المصير غداً بين يدى العلى الكبير . . ! ! !

فهو – كما قال واصفوه – يرتجف دوماً ويبكى ، وكأنَّ النار لم تُخلَق إلا له . . ! ! !

يرحمك الله أبا حفص . . ! ! !

من أى شىء تخاف . . ؟

ولمن جنات الله ، وخُلدُه . . ؟

ولمن رضوانه ، ومجده . . ؟ إذا لم تذهب أنت منه بالنصيب الأوفى . . ؟

لكنها – يابن عبد العزيز – شيمةُ الذين يَقْدُرون الله حقَّ قَدْرِه . .

أجل . . . فما كان للقديس ذنب يخافه ، ولاتفريط يُحاذِره . إنما هو جلال الله ؛ تجلّى منه فى روحه وَمْضة ، فجعلته دَكًّا . وخرَّ منها صَعِقاً . . ! !

* * *

لقد عاش فترة خلافته – تسعة وعشرين شهراً . . وكأنها تسعة وعشرون قرناً . ! !

وفى كل دقيقة ، كانت روحه وأعصابه وعافيته تُعطى جُهد عام . .

إن التغيير الهائل الذى أراده للدولة وللأمة ؛ كان يتطلب لوسارت ريحه رُخاءً جيلاً أو جيلين ، فأبىَ إلا إتمامه فى الأيام الباقية له على الأرض ، وبين الناس . .

وأى تغيير كان ؟ . .

إنه تغيير لايتطلب خليفة واحداً . بل عشرات من الخلفاء ، يحمل كل منهم روح رسول . . !

إنه يريد أن ينقل إلى دنيا الترف والفساد والردّة ، عصر الوحى والنبوة . . ثم هو لايريد أن ينقله إلى نظام الدولة والمجتمع وحسب . . بل إلى أفئدة الناس ، وضمائرهم ، وسلوكهم . . ! !

* * *

من هذه الصورة السريعة ، نلمح الأعباء الخارقة المهلكة التى حملتها روحه وجسده فى تَفان رهبانى ، واستبسال عظيم . .

إن بعضاً منها يكفى لتصديع الجبال . .

فكيف بها مجتمعة . . ؟

ثم كيف بها إذا اخترقت طريقها الأرزاء . . ؟

أجل ، فبينما الفدائى العظيم ماضٍ فى طريقه ، إذا به يفقد أحب الناس إليه ، وأحناهم عليه ، وأوفاهم له ، وأبرهم به . .

* أخوه « سهل » . .
* وابنه « عبدالملك » . .
* ومولاه « مُزاحم » . .

رحلوا عنه تِباعاً . . وتركوا مكانهم حوله شاغراً ، إلا من الذكرى التى تثير الألم والشجَن . . ! !

إنه لم يفقد فيهم - رضى الله عنهم أجمعين - الأخ ، والابن ، والرفيق . . بل فقد فيهم أعوانه على الحق ، والنماذج الصحيحة لفضائل عصر الوحى الذى شَغَفَه حباً وإجلالاً . .

ولقد راح يُحس أن ذهابهم ، إرهاصٌ بقرب ذهابه . . ،وأن رحيلهم ، أذانٌ بقرب رحيله . .

أفلا يهدأ إذن ويستريح ؟ ؟

لا ، بل راح يضاعف الجهد ، لينجز العمل قبل أن يرفع مَراسِيَهُ ويُبْحِر . . ! !

راح يتفوق على ماعهد البشر من طاقة ومقدرة ، وقد تملكته الرغبة فى استشهاد نبيل . . ! !

لم يعد يُؤرِّقه ولا يعنيه ، سوى أن يجىء حينه ، ويده القوية الأمينة ممسكة براية الله عزيزة ظافرة ، يقول لربه حين يلقاه :

« رَبِّ ، هذه رايتك لَم أُسلِمْها . »
« ووديعتُك ، لم أَخُنها » ! ! . . . »

* * *

وبينما هو فى عَنائه : وعظمة جهاده وبلائه ، كانت هناك مؤامرة تُحاك ، وجريمة تُدبَّر . .

فبينما مرت الشهور التسعة والعشرون على الجموع كأنها حلم سعيد . . كانت كل دقيقة منها كابوساً خانقاً مرهقاً للأمراء والسادة ، وذوى الامتيازات الظالمة التى داستها أقدام موكب الحق الذى قاده أبو الشعب ، وأمير المؤمنين . . ! !

هنالك ائتمروا به . .

وكما تُحدث بعض كتب التاريخ ، دَسُّوا له السم فى الطعام . . ! !

على أن قوة روحه لم تَخذله أبداً . . فراح يسابق المنية فى إنجاز مايستطيع إنجازه ، ويقول :

« إن لله شرائعَ وسنناً ، إنْ أعِش أعلمكموها وأحملكم عليها . .
« وإن أمت ، فما أنا على صحبتكم بحريص . . ! ! »

أجل . . إنه لا يربطه بالحياة الدنيا إلا الرسالة التى حملها فى عنفوان وتُقى . . وأعطاها حياته فى إخلاص وتَبتُّل . . ! !

لكن الآخرة ، سرعان ماتُرسل إرهاصها وبشائرها فى صورة شوق عارم يأخذ إلى الله قلبه وروحه .

لقد تأججت أشواقه إلى لقاء الله ، وتركزت فى قرب هذا اللقاء كل أمنياته وضَراعاته . وصار دعاؤه المفضل :

« اللهم اقبضنى إليك غير مُضَيِّع ولا مُفَرِّط » .

بل إنه ليرسل فى طلب« عبدالله بن أبى زكريا » وكان شيخاً عابداً صالحاً ، معروفاً بأنه مستجاب الدعاء . .

وحين يأتيه يسأله فى إلحاح أن يدعو الله له كى يُعجِّل بلقائه . . ! !

إلى هذا المدى ، راحت أشواقه تدفع زورق حياته إلى المرفأ السعيد . .

وأمر أن تُشتَرى له قطعة أرض بدير سمعان ، تكون لجسده مَثْوًى وقبراً . .

وإذ كان يأمر بشرائها ، قال له بعض أصفيائه .

« لو ذهبت إلى المدينة ، فإن أدركك الموت بها دفنت مع رسول الله ، وصاحبيه . . »

فإذا هو ينتفض كالطلقة المقذوفة ، ويقول :

« والله لأَنْ يُعذبنى الله بكل عذاب دون النار ؛ فإنى لاصبرَ لى عليها ، لأحبُّ إلى من أن أرى نفسى لهذا المقام أهلا » . . . ! !

* * *

واشتد به المرض . . . .

وتحولت الملايين من أبناء أمته إلى أطفال ، يوشك اليُتْم أن يَحيق بهم حين يفقدون أباهم .

الجياع ، الذين شبعوا . .

والعُراة ، الذين اكتسَوْا . .

والخائفون ، الذين أَمِنُوا . .

والمستضعَفون ، الذين سادوا . .

واليتامى ، الذين وجدوا فيه أباهم . .

والأيامى ، اللائى وجدن فيه عائلهن وأخاهن . .

والضائعون ، الذين وجدوا فيه مَلاذهم . .

والتائهون ، الذين وجدوا فيه دليلَهم . .

كل هؤلاء ، وأولئك . . كل الناس فى شعبه وأمته سحقتهم أنباء مرضه الداهم . . .

بل خارجَ أمته ، فى الدنيا التى حوله ، والتى كانت سيرته تفوح فيها كالعبير ، تولاّها الجزع والذهول . .

حتى امبراطور الروم ، العدو اللَّدود لدولة العرب والإسلام . يرسل كبير أساقفته ، وكان بالطب خبيراً ، ويرجوه أن يصنع المستحيل لإنقاذ حياة الجار الطيِّب والخليفة العادل ، والقديس الجليل . .

لكن القديس الجليل رفض كل علاج وكل طب وكل دواء وراح مع أشواقه ، ينتظران لحظة النداء . . ! !

* * *

هاهو ذا ؛ راقد فى داره المتواضعة ، فوق حصيره المعهود . .ويدخل عليه ابن عمه « مسلمة بن عبد الملك » فيقول له :

« يا أمير المؤمنين . ألا تُوصِى لأولادك ، فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ، ولم تترك لهم شيئاً » . . ؟ !

ويجيبه عمر « وهل أملك شيئاً أُوصِى لهم به ؟ أم تأمرنى أن أعطيهم من مال المسلمين ؟ والله لا أُعطيهم حق أحد . .

« وهم بين حالين : إما أن يكونوا صالحين ، فالله يتولاهم . .

وإما غير صالحين ، فلاِ أَدَعُ لهم مايستعينون به على معصية الله . . ؟ ! »

وأمَره أن يدعو أولاده ، فجاءوا مسرعين . . اثنى عشر ولداً وبنتاً ،

شُعْثاً غُبراً ، قد زايَلَتْ جسومَهم الشاحبة نضرةُ النعيم ! !

وجلسوا يحيطون به ، وراح يعانقهم بنظراته الحانية الآسية . . ويتحسس بيمينه ثيابهم البالية . . ويغالبُ دموعه ، فتغلبه فيواريها وراء كلماته التى راح يودع بها أبناءه وأحباءه . .

« يابنىَّ . .

« إن أباكم خُيِّر بين أمرين . .

أن تستغنوا ، ويدخل النار . .

أو تفتقروا ، ويدخل الجنة . .

« فاختار الجنة . .

« وآثر أن يترككم لله الذى نزَّل الكتاب ؛ وهو يتولى الصالحين » . !

ثم بَرِق بَصره والتمع مُحيَّاه ، وصوَّب حَدقتيه تجاه الباب فى اهتمام حَفِىٍّ ، كأنما أبصر ضيوفاً أعِزَّاء . .

ثم ابتسم لأبنائه ، ولأمهم العظيمة وزوجته الوفية ، وأذِن لهم بالانصراف . .

وبينما هم منصرفون عنه ؛ كان يحرك كفيه ويشير بهما إشارة من يُحيِّ ضُيوفاً قادمين . . ! !

أجل ، لقد كانت بَعثَةُ شَرفٍ من الملائكة المقربين ، جاءت تصحب القديس إلى حفل تتويجه المعدِّ له هناك . . فى جنات الخلد وفردوس الله . . ! !

وسمعه الذين وقفوا خارج حجرته يردد الآية الكريمة :

« تلك الدار الآخرة ، نَجعلُها للذين لايريدون
عُلُوًّا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين »

وجاء مستشاره العظيم وصديقه الحميم « رجاء بن حيّوة » يسعى . .

وألقى بنفسه إلى جواره ، وهمس فى سمعه :

= كيف تجدك ، يا أمير المؤمنين . . ؟ ؟

لكن أمير المؤمنين يسترسل فى تلاوة الآية الجليلة الكريمة :

« . . لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » . .

* * *

وفجأة . . مال رأسه الذى طالما أثقلته هموم أمته إلى وراء . .

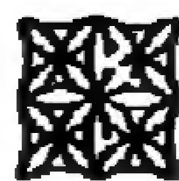
مَالَ ، ليستقر فوق وسادة ، حَشْوُها لِيف . . ! !

وأُغمضَتْ عيناه اللتان لم تُغمِضا قط عن حقٍّ لله . . ولا عن حقٍّ للناس . . ! !

وعاد المسافر إلى وطنه . . وآبَ إلى داره . . .

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصدِّيقين ، والشُّهداء ، والصالحين . .

وحَسُنَ أولئك رفيقاً ! !



كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكي لا تحرثوا في البحر
٧ – الله ، والحرية : ثلاثة أجزاء
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكاره في القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدي عمر
١٥ – في البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنساني في مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية في عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – في رحاب علي
٢٣ – وداعاً ، يا عثمان
٢٤ – أبناء الرسول في كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام في حياة الرسول

رقم الإيداع	١٩٩٦/٤٠٨٤	
الترقيم الدولي	977-02-5256-5	ISBN

١ / ٩٦ / ١٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

فى صدق تاريخى عظيم يرفض كل تساؤُل وشك ، جاءتنا أنباء هذا الإنسان الباهر ، والحاكم القِدِيس .

إنه وإن لم يَنْتَمِ لعصرِ الوحى - تاريخيًّا - إذ تفصله عنه عشرات الأعوام ، فإنه بقَداسَةِ روحه ، وجَلال نُسُكه ينتمى إليه أروع ، وأجمع ، وأوثق ما يكون الانتماء . . .

بل إنه حاوَلَ ونجح فى أن ينقل « عصر الوحى » بكل مُثُله وفضائله إلى دنيا هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة بالتحلّل والترف . ثم جعل من المُلك العَضُوض الذى شاده الأمويون عَبْرَ ستين عاماً ، خِلافة أَوَّابة ، عادلة ، بارّة ، تمثل كل فضائل عصر النبوة والوحى . . ولم يصنع تلك المعجزة فى عشرين عاماً ، ولا فى عشرة أعوام - بل فى عامين ، وخمسة أشهر ، وبضعة أيام . . ! !

إن « معجزة الإسلام » هذا ، لم يشغل الناس والتاريخ بنبوغ عبادته ، ووفرة عدله ورحمته ، وسمو حكمه وخلافته فحسب . .

بل إنه - قبل ذلك - شغَلهما وبَهَرهما بهذا الانقلاب الروحى المذهل الذى واتاه لحظة تسلمه مقاليد الخلافة والحكم ، ثم استمر معه حتى آخر حياته ، جاعلاً منه أسطورة أصدق من الحقيقة ، وحقيقة أعجب من الأساطير . . ! ! !

٧١٥



دار المعارف